
حسين علي الجبوري
ختان البنات
في المجتمعات الاسلامية
بين الرفض والفرض
(المجتمع العراقي أنموذجاً)

ختان البنات في المجتمعات الإسلامية
بين الرَّفض والفَرض

(المجتمع العراقي أنموذجاً)

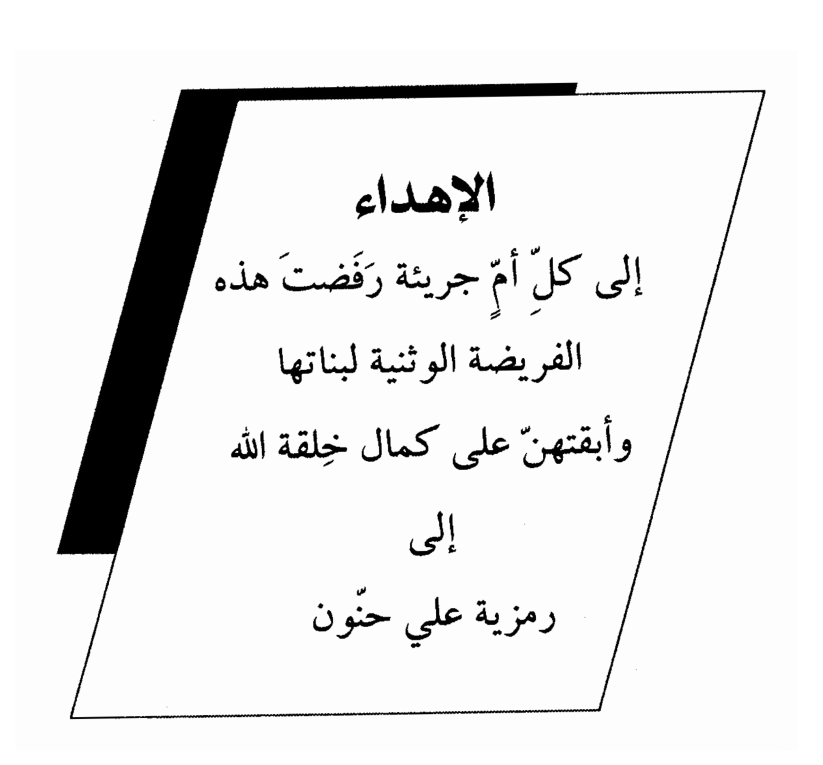
حسين علي الجبوري

خـتان البنات في المجتمعات الإسلامية

حسين علي الجبوري

دار الحدباء - ساحة النسور - بغداد
الطبعة الاولى - 2015 م

بسم الله الرحمن الرحيم


الإهداء
إلى كلِّ أمٍّ جريئة رَفَضتَ هذه
الفريضة الوثنية لبناتها
وأبقتهنّ على كمال خِلقة الله
إلى
رمزية علي حنّون

١

المقدِّمَة

لا يعرف الشيعة في العراق ولا السنة فيه هذا التقليد الذي كان يمارس في الجاهلية على بناتهم وبقي حتى مجيء الإسلام وانتشاره إلى اليوم سارياً في البلاد الإسلامية ومفروضاً بقوة رغم أن النبيَّ ﷺ لم يفرضه عليهن بقوة كما فرضه على الذكور.

وكان ختان البنات تجريه امرأة، يقال لها (الختّانة) و(المُعَذّرة) و (الخافضة). و (المُبَظّرة) والخَتنُ معناه: القطع ولهذا تُسمّى تلك المرأة بـ(مقطعة البَظور) لأنها عندما تختن تقطع بظر البنت. وكان يقال لها ذلك في معرض الهجاء. وخَصَّصَ بعضهم الخفض بالنساء[1].

---

١) جاء في اللسان مادة: خفض ما نصُّه (والخافضة: الخاتنة وخفض الجارية يخفِضُها خَفضاً: وهو كالختان للغلام وأخفضت هي، وقيل خَفَضَ الصبيَّ خَفْضاً، فاستعمل في الرجّل والأعرف أن الخفض للمرأة والختان للصبي فيقال للجارية خفضت وللغلام خُتِن وقد يقال للخاتن خافض وليس بالكثير. أ. هـ إلا أن ما سار على ألسن الناس هو كلمة الختان تقال للرجل والمرأة ولم أسمع من يُستعمل الخفض.

وعُرفت في المدينة خافضة يقال لها (أم أيمن) وجاء أن رسول اللهﷺ كان يوصيها بقوله:

(يا أمّ أيمن إذا خفضت فأضجعي يدك ولا تنهكيه فإنه أسنى للوجه وأحظى عند الرجال). (١) وقولهﷺلا تنهكيه أي لا تزيلي البظر من جذره.

وتشير كثير من المصادر إلى أن خفض الجواري ليس من السنة لأنه لم يأمر به رسول اللهﷺ وإنما كان يوجّه لما يبدو أن بعض الخاتنات كن يجهدنه من أصله وقد رَدَّ جُملةٌ من الفقهاء هذه الأحاديث واعتبروها غير صحيحة كما سنفصل ذلك.

* * *

٢

رأيُ الشيعة في ختان البنات

لا يُجري الشيعة الإمامية عملية الختان على بناتهم استناداً على أحاديث وردت عن أئمتهم لا تجيز ختان النساء منها حديث مأثور عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال فيه: ختان الغلام من السنّة وخفض الجواري ليس من السنّة. (٢)

وعن علي عليه السلام قال لا بأس ألا تختن المرأة أما الرجل فلا بدّ منه.

وفي حديث أبي بصير عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام قال:

(سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن الجارية تُسبى من أرض الشّرك فتُسلم فيُتطلّبُ لها من يخفضها فلا نقدر على امرأةٍ. فقال: أما السُنّة في الختان فعلى الرجال وليس على النساء) (٣)

فأفتى الإمام بحلّية الزواج من النساء البظراوات اللواتي يسلمن ويبقين على حالتهن دون خفض.

وقد كانت هاتيك الجواري زمن عثمان بن عفان (رض) (٤٧ق.هـ - ٣٥هـ) إذا أسلمن يتوجب عليهن الخفض. جاء ذلك من خلال حديث أم المهاجر الرومية التي كانت من الجواري المسبيات، قالت:

(فرض علينا عثمان الإسلام فلم يُسلم منا غيري وغير أخرى، فقال عثمان: اذهبوا فاختنوهما وطهّروهما).

فيظهر لنا من خلال هذا الحديث أن الخاتنات زمن عثمان كن موجودات في المدينة يمارسن ختان النساء فيُبعث إليهن بالسبايا من نساء أهل الشرك فَيَختنَّهنّ.

ولكن زمن الإمام الباقر (٥٧هـ - ١١٤هـ) الذي قضى معظم حياته في المدينة خلال حكم الأمويين صعب العثور عليهن لانتفاء الحاجة إليهن الأمر الذي يدل على أن ختان النساء قد هجر زمن الأمويين.

وقد أدت تلكم الأحاديث المروية عن أئمة الشيعة إلى نبذ ختان البنات عندهم عموماً واعتبره البعض حراماً وعاراً فندر أن تجد اليوم امرأةً أو بنتاً شيعية مختونة في عموم العراق. أما الطائفة السنية في نفس المحيط فكذلك لا نجد عندهم هذه السنة متبعة عدا الطائفة السنية الكرديّة فنجد في بعض مناطقهم في القرى والأرياف الصاعدة في الجبال أن القرويين هناك

يمارسون ختان بناتهم ونسائهم وإذا انحدر هؤلاء إلى المدينة بقوا على رأيهم وسنتهم لا ينفصلون عنها كما سنفصّل ذلك.

* * *

٣

مصدرُ سُنة ختان البنات

اعتبر كثير من الفقهاء أن هذه السنّة تقع ضمن سنن النبيّ إبراهيمعليه السلام التي أُطلق عليها مصطلح (سنن الفطرة). وهي عديدة توجب بعضها نتف الإبط وحلق العانة وقص الأظافر وحفّ الشارب وإعفاء اللحية، وقد عدّدها السيد سابق وجعل أولها الختان. قال:

ولقد اختار الله سنناً للأنبياءعليهم السلام وأمرنا بالاقتداء بهم فيها وجعلها من قبيل الشعائر التي يكثر وقوعها ليعرف بها أتباعهم ويتميزوا بها عن غيرهم وهذه الخصائص تسمى (سنن الفطرة) وبيانها فيما يلي:

١- الختان: وهو قطع الجلدة التي تغطي الحشفة لئلا يجتمع فيها الوسخ وليُتمكن من الاستبراء من البول ولئلا تنقص لذة الجماع، هذا بالنسبة إلى الرجل، وأما المرأة فيقطع الجزء الأعلى من الفرج بالنسبة لها. وهي سنّة قديمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله (اختتن إبراهيم خليل الرحمن بعدما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم) (٤)

هذا ما قاله السيد سابق. أما ما جاء عن المفسرين الأوائل فلم يذكروا سنة ختان النساء وإنما قالوا: إن الله ابتلى إبراهيم بسنن الفطرة وهي التي ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمّهنّ) وهي الكلمات العشر، خمسة في الرأس وخمسة في الجسد، فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب والفرق والسواك. وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان. فلما جاء الإسلام قرّرها سنّةً من السُّنن (بلوغ الأرب/ الآلوسي/ ٢/ ١٧) ولم يجيء ذكر ختان النساء. وبمقارنة هذا النصّ مع قول السيد سابق السابق نجد أن الرجل قد أقحم ختان النساء ضمن سنة الختان التي جاء بها إبراهيم وذلك لكي يشرعن عملية ختان البنات المنتشرة بين الشعب المصري ويجعلها سنة من ضمن السنن التي جاء بها إبراهيم وهي ليست بذاك حيث لم يأت بها إبراهيم كما سنبين ذلك.

* * *

٤

ختان البنات في رأي الفقهاء المعاصرين

اتفق غالبية الفقهاء المعاصرين على أن مصدر الختان هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام ولكنهم اختلفوا في مسألة ختان البنات فبعضهم قال إنه عليه السلام أمر بختان الذكور والإناث وبعضهم نفى أن يكون ختان البنات من ضمن الوصية التي هي خاصة بالذكور فقط، الأمر الذي جعل شيخ الأزهر السابق المرحوم د. سيد طنطاوي يصرح علناً أن الإسلام لا يفرض ختان البنات. (٥)

أما الفقيه المشهور يوسف القرضاوي فقال: وأما ختان البنات فمن المسائل التي اختلف حولها الفقهاء والأطباء بين مؤيد ومعارض، وأعدَلُ الأقوال هو اختيار الختان الخفيف الذي لا يقضي على شهوة البنت على أن لا يكون مكرمة، وأمراً مستحباً لا واجباً.

ويضيف الشيخ القرضاوي: لا يوجد دليل صحيح من الأحاديث يدل على الوجوب أو السنة بالنسبة لختان النساء. أما حديث إذا التقى الختانات فقد وجب الغُسل فهو يدل على أن النساء كنَّ يختن أي على جواز الختان وهو ما لا نجادل فيه

وإنما نجادل في الوجوب والسنة. أما حديث أم عطيه عند أبي داود ـ والكلام للقرضاوي ـ فالأرجح أن الأمر في مثل هذه الأمور للأرشاد ولا يدلُّ على أصل الوجوب أو السنة. والذي أرجحه هنا أن الختان للبنات ليس بواجب ولا سنة وإنما هو جائز. (أنظر/ موقع تحقيقات/ ختن البنات في كوردستان/ تحقيق عبد الرحمن الباشا/ العدد ١٣٣-٢٠٠٧/٢/١٤).

ونذكر كذلك الفتوى الرسمية للأستاذ الدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية المصرية المنشور في مجلة (المصري اليوم) في (٢٠٠٥/٧/٤ /ص٤) وجاء فيه (تحريم ختان الإناث شرعياً واعتباره مجرد عاده لا علاقة لها بالإسلام من قريباً أو بعيد حيث أكدت اللجنة الشرعية العليا لدار الإفتاء المصرية خلال اجتماعها أن ختان الإناث هو عادة محرمة شرعاً وذلك لما أثبت الطب الحديث بالأمر القطعي والنفسي بمضاره الكثيرة الجسدية منها قطع جزء من جسدها بغير مسوغ أو ضرورة تقتضبه محظور شرعاً) ونذكرً أيضاً فتوى المفتي الدكتور محمد سليم العوى نائب رئيس الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين. قال: إن الحكم الشرعي لختان الأنثى ليس بواجب ولا سنة ولا مكرمة. وقد اعتبر ضعيفاً جميع ما روي بصدد ختان الإناث بل هو عادة ضارة ضرراً محضاً بناءً على المصادر المعتمدة.

وقد ورد في كتاب الفتاوى لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر السابق) تحت عنوان ختان الإناث قوله: (وقد خرجنا في استعراض المرويات في مسألة الختان على إنه ليس فيها ما يصح أن يكون دليلاً على السنة الفقهية فضلاً عن الوجوب الفقهي وهي النتيجة التي وصل إليها بعض العلماء السابقين وعبر عنها بقوله: ليس في الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع).

(أنظر / ختان الإناث: أضراره وتحريمه في القرآن/ البروفسور الدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي / ص٦٩وما بعدها)

* * *

٥

ختان البنات في رأي السلفيين في العصر الأوسط

نذكر من الذين أوجبوه أشهرهم وهو الإمام الشافعي، فالختان عنده واجب على الرجال والنساء جميعاً، ثم أن الواجب في الرجل أن يقطع جميع الجلدة التي تغطي الحشفة وفي المرأة يجب قطع أدنى جزءٍ في الجلدة التي في أعلى الفرج (أنظر/ دائرة المعارف الإسلامية المترجمة/ مادة ختان)

ويأتي في المقام التالي (أبن تيمية الحَرّاني الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة (٧٢٨هـ = ١٣٣٨م) فقد سُئل عن المرأة: هل تختتن؟ فأجاب: نعم تختتن، قال رسول الله ﷺ للخافضة: اشمِّي ولا تنهكي. فإنه أبهى للوجه وأحظى لها عند الزوج فختان المرأة يعدّل شهوتها فإنها إذا كانت غلفاء كانت مغتلمة شديدة الشهوة. (٦)

أما أبن قيّم الجوزية (أي أبن القيّم على المدرسة الجوزية) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفقيه الحنبلي تلميذ أبن تيمية (عاش عام ٦٩١ إلى عام ٧٥١هـ) (١٢٩٢ – ١٣٥٦م) (٧) فإنه قال في تحبيذ ختان النساء:

(أي زينةٍ أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحدَّ من جلد الغلفة فإن الشيطان يختفي تحت ذلك كلّه ويألف ويقطن فيه حتى أنه ينفخ في أحليل الأغلف وفرج الغلفاء ما لا ينفخ في المختون.... ولا يخفى على ذي الحسّ السليم قبح الغرلة وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين) (٨)

وقوله هذا جاء خلاصة أقوال الفقهاء القدامى الذين يعتقدون أن الشيطان يختفي في غلفة الذكر والأنثى غير المختونين.

يقول الكاتب _حسين علي لوباني: ونرى بعض البلاد تتمسك بالختان أكثر من صلاتها وصيامها حيث تترك نسبة لا بأس بها للصلاة أو للصيام ولا تترك ختان البنت ويتعصب له الجهلاء والعلماء على السواء، وإذا ذكر ختان البنات وأضراره انتصب كالليث الهصور مدافعاً عن استحبابه وربما قال بوجوبه ولا دليل عنده غير أقوال بعض الفقهاء الذين لم يفهموا حديث أم عطية. أو تأثروا في فهمه ببعض عادات الجاهلية. (٩)

* * *

٦

ختان البنات ليس من سنّة إبراهيم

وفي الواقع أن أولئك الفقهاء الذين فرضوا على الناس ختان بناتهم جهلوا أو تجاهلوا سنة إبراهيم الحقيقية في الختان التي جاءت كشريعة منزلة لليهود من الله لعقد عهد بينه وبينهم يجب عليهم حفظه مدى الأجيال:

(وقال الرب لإبراهيم: أمّا أنت فاحفظ عهدي أنت وذُريتك من بعدك مدى أجيالهم. هذا هو عهدي الذي بيني وبين ذُريتك من بعدك الذي عليكم أن تحفظوه: أن يختتن كل ذكر منكم. تختتنون رأس قُلفة غُرلتكم فتكون علامة العهد الذي بيني وبينكم. تختتنون على مدى أجيالكم كُلّ ذكر منكم إبن ثمانية أيام سواءً كان المولود من ذريتك أم كان إبناً لغريبٍ مشترى بمالِك ممن ليس من نسلك. فعلى كل وليد سواءً ولد في بيتك أو اشترى بمالٍ أن يختن فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. أما الذكر الأغلف الذي لم يختن، يستأصل من بين قومه لأنه نكث عهدي.

وفـي ذلـك اليـوم بعينـه أخـذ إبـراهيم إسـماعيل وجميـع المولودين في بيته وكل من اشترى بمالٍ كل ذكر من أهـل بيتـه وختن لحم غُرلتهم كما أمره الـربّ وكـان إبـراهيم فـي التاسـعة والتسعين من عمره عندما ختن في لحم غرلته أما إسـماعيل ابنـه فقد كان إبن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته. وهكذا ختن إبراهيم وإسماعيل إبنُه في اليوم نفسـه وكـذلك خـتن معـه كل رجال بيته الولودين فيه والمبتاعين بمالٍ. (١٠)

وهكذا أسس إبراهيم سنة الختان على الـذكور بـوحي مـن الله. وهناك مقاطع عديدة تتحدث عن ختان الذكور موجوده هنا وهنـاك فـي أسـفار التـوراة. ففـي (سِـفر اللاويـين) (١١) كلّـم الله موسى طالبـاً منـه أن يخـتن كـل ذكـر فـي اليـوم الثـامن مـن ولادتـه (١٢) وجـاء ذكـر الختـان فـي (سِـفر يشـوع) (١٣) وهـو خليفة موسى بعد وفاته واستلامه قيادة الشعب في أرض الميعـاد (فلسطين) [١].

١) ويشـوع هـو يشـوع بـن نـون خليفـة موسـى بعـد وفاتـه ويعتبـره بعـض المفسـرين المسلمين نبياً من أنبياء بني إسرائيل . وألحقوا بعد ذكر اسمه بعبارة (عليه السلام). وقد أمره الله ـ حسبما جاء في سفره ـ بختان اليهود بعـد عـودتهم إلـى سـيناء وكـان الكثيـر منهم قد أهملوا الختان وكبروا وهم غير مختونين فقام بختنهم ختاناً جماعياً.

(وقال الربُّ آنئذ ليشوع: اصنع لك سكاكين من حجر الصوّان واختن ذكور إسرائيل في (تل القُلف). وبعد أن تمّ ختان جميع الشعب مكثوا في أماكنهم حتى برئت جراحهم) (١٤)

ويبدو أن الختان بسكاكين الحجر قد استمر العمل به فلاحظ (دان Dan) أن الجزائريين يستعملون للختان مدية من الحجر والظاهر أن هذه العادة قد بطلت اليوم. وذكر (ولِكِن Wilken) أن بعض السكان في جزائر الهند الهولندية يستعملون للختان سكاكين من حجر. (دائرة المعارف الإسلامية/ مادة ختان).

* * *

٧

اختلاف الفقهاء في تحديد أعمار المختونين

وقد اختلف فقهاء المسلمين في تحديد أعمار المختونين ففي الحديث أن إبراهيم أختتن في الثمانين من عمره (١٥) ويقوم هذا الحديث على ما ورد في التوراة من أنه ختن وهو في التاسعة والتسعين من عمره ويبدو أن الحديث جاء لتصحيح رقم التوراة التي يعتبرها المسلمون أنها قد حرّفت.

وأورد ابن سعد رواية تذهب إلى أن إبراهيم كان قد أختتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة (١٦). يقول (فنسنك) (A. J. Wensinck): والظاهر أن هذا الحديث ليس إلا صدى لما كان عليه الختان في القرون الأولى للإسلام. وفي الوسع مقارنته بما ورد عن ختان ابن عباس في الحديث، فقد جاء في بعض الأحاديث (أحمد بن حنبل ج١ ص٢٧٣) أن ابن عباس كان ابن خمس عشرة سنة عندما قبض النبي. وجاء في غيرها أنه كان ختيناً وقتذاك (البخاري: كتاب الاستئذان باب ٥١ أحمد بن حنبل / ١/ ٢٦).

كما ورد ذكر الختان في الحديث في رواية قصة هرقل ونظره في النجوم فقد رأى هرقل حين نظر في النجوم ملك الختان قد ظهر . . . وعندئذ أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسّان يخبر عن رسول الله. والظاهر أن الرجل كان مختتناً وقد أخبر العاهل أن العرب يختتنون (١٧) أقول: ويبدو لي أن مصطلح (ملك الختان) الذي وصف به ذلك المتنبي نبيناً محمداً جاء من روايات تقول أنه (ص) ولد مختوناً (طبقات ابن سعد/ ج ١/ القسم الأول ص/٦٤).

* * *

٨

إبطال أحاديث ختان البنات

لم يرد ذكر الختان في القرآن الكريم بنوعيه إطلاقاً وإنما ورد في بعض الحديث النبوي فاعتبر من السنة النبوية وأدخلوا فيها أحاديث أكّد بعض الفقهاء أنها لم تصح وبعضهم قال بضعفها منها هذا الحديث الذي ذكروه عن رسول الله أنه قال لأُمّ عطية الخاتنة: أَشِمّيه ولا تنهكيه فإنه أسرى للوجه وأحظى عند البعل، كأنه أراد أن ينقص من شهوتها بقدر ما يردّها إلى الاعتدال، فإنّ شهوتها إذا قلّت ذهب التمتّع ونقص حُبٌّ الأزواج وحب الزوجة فيدور الفجور. (تاج العروس/ مادة بظر) قال الدكتور جواد علي: وهو حديث مناقض لما عرف عن الرسول من عدم النطق بمثل هذا الهجر وفي تاج العروس أحاديث ضعيفة موضوعة وقد ذكرها. (١٨)

ومنها هذا الحديث:

(لما هاجرت النساء إلى رسول الله ﷺ هاجرت فيهنّ امرأة يقال لها أم حبيب وكانت خافضة تخفض الجواري فلما رآها رسول الله ﷺ قال لها: يا أم حبيب، العملُ الذي كان في يدك

هو في يدك اليوم؟ قالت: نعم يا رسول الله إلا أن يكون حراماً فتنهاني عنه! فقال: لا يا أمَّ حبيب، إذا أنت فعلتِ فلا تنهكي. أي لا تستأصلي وأشمِّي فإنه أشرق للوجه وأحظى عند الزوج) (١٩)

أقول: لا شك أن القارئ إذا تبصّر بهذا الحديث جيداً لبدا له سُخفه وبطلانه. فهل كان رسول الله ﷺ أكثر علماً بطريقة ختان النساء ليعلم هذه الخاتنة طريقة شغلها؟ وإن كان يبغي أن يعلّمها طريقةً خاصة معيّنة فهذا يدل على أنه كان ختّاناً للنساء تعالى النبي عن ذلك. ثم ما الداعي لأن ينفرد بها من دون مجموعة النساء اللواتي جئن لمبايعته فيعلمها علم ختان النساء الذي لم يرد في القرآن ولا يعلمها آيات القرآن؟

وهناك أحاديث أخرى يجلُّ النبي عن قولها مثل هذا الحديث الذي توجه به إلى خاتنة أخرى تسمى (أم طيبة) يقول الحديث إنه (دعاها) يعني أرسل إليها وقال لها: يا أم طيبة إذا خفضت فأشمي ولا تجحفي . . إلخ . . وكأنما لم يكن يشغل الرسول غير تعليم الخاتنات طريقته في الختان (٢٠) ألا ساء ما يتقولون على النبي.

وقد تأيد لفقهاء السنة شرعية ختان النساء من حديث له ﷺ: إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل فقالوا: يعني ختان

الـذكر والأنثى (٢١) وجـاء فـي مسـند أحمـد بـن حنبـل (ج٥ ص٧٥) أن الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء.

* * *

٩

الختان عمليةُ تعبُّدٍ وثنية

ترجع كلمة الختان إلى أصل سامي قديم والختان في الأصل نوعٌ من أنواع العبادة الدموية التي كان الإنسان يقدمها إلى أربابه وتُعدُّ أهمَّ جزءٍ من العبادات في الديانات القديمة فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منه تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد كما كان حلق الشعر أو جزء منه نوعاً من أنواع التقرب إلى الآلهة.

وتمارس الختان قبائل الجالا والفلاشا بالحبشة ونجده عند قبائل البانتو والمسّاي بأفريقيا وقبائل الاوتاهي وسكان جزر التونجا وبولينيزيا وفيجي وكليدونيا الجديدة. وكانت ممارسات الختان معروفة بين سكان الأزتك سكان المكسيك القدماء المشهورين بالتعبد للآلهة عن طريق تقديم الأضاحي البشرية إليها بواسطة إحراقها في المعبد (أنظر كتابنا/ الخناقون ورسيس القتل الطقسي ص ١٠/ ط. الثالثة)

وكان هذا النوع من الختان معروفاً كذلك بين سكان حوض نهر الأمازون وغيرهم. وكلٌّ هذه الشعوب وثنية الديانة وكان المصريون الفراعنة يختتنون قبل ١٤٠٠ عام قبل الميلاد (الموسوعة العربية الميسرة/ مادة ختان).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن عملية الختان بنوعيه يمارس بمثابة قربان لآلهة الخصوبة فيقدم لهذه الآلهة جزءٌ من جهازي الخصوبة للمرأة أو الرجل فتتحفز الآلهة فتهب الخصب والنماء إلى البلاد. ويقول علماء آخرون أنها اختبار للقدرة على احتمال الألم. واعتبر آخرون أن الختان تمييز اجتماعي للمختونين عن غيرهم. وأن المختون يتجنّب الخطر الكامن في مباشرة العملية الجنسية بتضحيته بجزء منه في سبيل كلّ (معجم الفولكلور/ د. عبد الحميد يونس/ مادة ختان).

وذكر انتشار هذه العادة عند العرب بعض الكَتَبة الكلاسيكيين مثل (يوسِفوس) المؤرخ اليهودي و (أديسيوس) و(سوزمينوس) ويظهر أنه كان معروفاً عند العرب الجنوبيين وعند الحبشة كذلك وقد طبق على النوعين من الذكور والإناث. وقد ورد في بعض الأخبار أن الروم حاولوا منع العرب من الاختتان (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٤/ ٦٥٣).

وكان الختان يمارس ترضية للأرباب في سبيل دفع وباء خطير يحدثُ في البلاد فذكر أنه عندما تفشى الوباء في مملكة (إيل) المترامية الأطراف ذبح أيل ابنه الوحيد ترضية لأبيه في السماء ويقال أنه أول من اختتن وأمر جميع أهله أن يختتنوا (أساطير وفولكلور العالم العربي/ شوقي عبد الحكيم/ ٦٣) وكان

ذبح الأبناء ترضية للآلهة لتدفع الشرَّ معروفاً بين الشعوب القديمة ثم أُبدل بقطع جزء من الضَّحيّة بدل كلها واختير القطع على غلفة الذكر. (قصة الحضارة/ وول ديورانت/ ٢/ ٣٤٦).

وفي إنجيل (بُرنابا) أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربَّه نذر أن يقطع من نفسه عضواً إذا تاب الله عليه فلما قبلت توبته وأراد الوفاء بنَذره إحتار ماذا يصنع فدلّه جبريل على هذا الموضع فقطعه ولعلّ أبناءه تركوا هذه السنة من بعده حتى أمر الله إبراهيم بإحيائها. (قصص الأنبياء/ عبد الوهاب النجار/ ٩٤) ومن هذا يتبين لنا أن للختان سبباً آخر هو التكفير عن الذنب الذي ارتكب في حق الإله.

وربما استوجب الختان بَرّاً بقسم كما جاء في الأسطورة الآتية:

كانت سارة عند إبراهيم فمكثت معه دهراً لا ترزق منه ولداً، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أَمَتها، فولدت لإبراهيم، فغارت من ذلك سارةُ ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء. فقال لها إبراهيم: هل لك أن تَبرِّي بيمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: شقّي أذنيها واخفضيها والخفض هو الختان. (روضة المحبين ونزهة المشتاقين/ ابن قيّم الجوزية ٢٩٨) والخبر هذا يمكن أن نجعله بمثابة أسطرة لختان

البنات باقتراح إبراهيم أن يجري على هاجر وهـذا التفسـير تبنـاه الجاحظ قائلاً:

(وهذا الختان في العرب في النساء والرجال من لدن إبراهيم وهـاجر إلـى يومنـا هـذا) (كتابـه/ الحيـوان/ ٢٧/٧ بتحقيـق عبـد السلام هارون)

* * *

١٠

تبديل اسم المرأة يعوّض عن ختانها

تطالعنا التوراة بظاهرة غريبة جديرة بالاهتمام حدثت أثناء نزول أمر الختان على إبراهيم هي تغيير اسم النبي. فقد كان اسمه (أبرام) فيما مضى من حياته. والتوراة في جميع الإصحاحات السابقة تذكره بهذا الاسم ذاته ولكن عندما نزل ذلك الأمر واختتن تغير اسم النبي إلى (إبراهيم) فجاء في (التكوين / ٧/ ٤):

(ولن يدعى اسمك بعد الآن إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأنّي أجعلك ـ والقول لله ـ أباً لجمهور من الأمم وأُصيِّرك مثمراً جداً) .

وقد مضت التوراة بعد هذا الأمر الإلهي تذكره باسم إبراهيم وألغت أسمه القديم لأنه صار بعد الختان إنساناً جديداً مثمراً ومات إبرام القديم غير المثمر .

ولم يقع تغيير الاسم على إبراهيم وحده فحسب بل صدر الأمر من الله بتغيير اسم زوجته الأولى العاقر كذلك، فقد كان

اسمها فيما مضى (ساراي) فسماها الله بعد هذه الحادثة (سارة) ومعناها أميرة.

فماذا يخفي هذا التغيير في الاسم من سِرّ؟

يرى علماء الأنثروبولوجيا أن عملية الختان وضعت أساساً لغرض تهيئة الإنسان لدخوله مرحلة جديدة من حياته فختانه معناه تطهيره من أجل تأهيله للدخول في هذه المرحلة. بمعنى أن العملية تضمُّ مشهدين: مشهد موت ومشهد حياة، موت لحالته قبل الختان وحياة لحالته بعد الختان. فإبرام غير المثمر مات قبل الختان عاد إلى الحياة بعد الختان مثمراً باسم إبراهيم.

وإذا رجعنا إلى الضيقة النفسية التي كانت تسحق (ساراي) زوجة إبراهيم بسبب عقمها واقتران هذا الانسحاق بشبوب نيران الغيرة في قلبها بسبب ولادة جاريتها هاجر فسنجد أنها كانت تعيش حالة شوق عنيف للإنجاب لتكون كجاريتها هاجر في الإنجاب ولكنها كانت تدري أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق لأنها تجاوزت سنّ اليأس وكذلك زوجها الذي قارب المائة. فكيف يكون حل العقدة.

هنا يأتي دور (الفكر الفطري) ليُحدّدَ أمر الحل وكان هذا الأمر يقضي أن يموت الزوجان ويولدا من جديد وبالفعل فقد

مات إبرام وبالختان عاد إلى الحياة بشكل إبراهيم المنجب المثمر جداً الذي ستتفرع منه الأمم.

أما بالنسبة للزوجة (ساراي) العاقر فقد اقتصر الحلُّ بتبديل اسمها فقط لأنه لم تكن شريعة ختان الإناث مقررة في ذلك الزمان فآل اسمها أن يكون سارة المنجبة الأمر الذي يمكن أن يكون تبديل اسمها بمثابة ختان رمزي لها فأنجبّتْ بكرها إسحاق يعني أنها خُتِنَت تصوراً لا حقيقة بهذا الأسلوب.

وقد يكون هذا الأسلوب متبعاً في ذلك الزمان ولكننا لا نمتلك شواهد عليه غير هذا الشاهد.

* * *

١١

احتقار الخاتنات وأبنائهن

تشير المصادر إلى أن عمل الخاتنات كان محتقراً بين الشعوب في الجاهلية والإسلام ولم يجر الاحتقار على من يقوم بختان الذكور. ثم لحق الاحتقار إلى أبناءهن أيضاً. ويستدل على ذلك من عبارة (إبن مقطعة البظور) التي كان يكنى بها أحد أهل مكة واسمه (سِباع بن عبد العزى). وقد شتمه (حمزة) بهذه الكنية يوم التقى به في معركة أحد وحمل عليه قائلاً (هلمّ إليَّ يا ابن مقطعة البظور.. وكانت أمّه ختّانة في مكة تخفض الجواري) (٢٢) ثم حمل عليه فقتله بضربة واحدة، والعرب تطلق هذه اللفظة في معرض الذم (٢٣).

وذكر عمر بن شَبّة في كتاب مكة عن عبد العزيز بن عبد المطلب أن المومى إليها هي أم سباع أمة عبد العزى الخزاعي. وكانت أمةً وهي والدة (خَبَّاب بن الأرتّ) الصحابي المشهور. (٢٤)

وقيل أنها كانت أم أنمار مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثقفي وكانت ختانة بمكة. (٢٥)

وهذا الشتم يقال كذلك للشخص حتى لو لم تكن أمه خاتنة مما يدل على شناعة عمل الخاتنة وكراهيته وقبحه. (٢٦).

وكانت الخاتنات من طبقة الإماء ولم يكنّ من الحرائر مما يدل كذلك على أن هذه المهنة محتقرة تأنف من ممارستها نساء الطبقات الراقية في المجتمع العربي.

* * *

١٢

شتم الشخص بأُمه إذا كانت بظراء

وقد اعتاد العرب قديماً أن يتهاجوا فيما بينهم بشتم الأمهات عن طريق فضح معايبهن كالتطرّق إلى كشف ضئالة أنسابهن وخسّة سلوكهن وعيوب أجسامهن من الأعلى إلى الأسفل وصولاً إلى مناطق الحياء في أوساطهن وخاصة فيما يتعلّق بعيوب فروجهن التي لا تحصى[١] علماً بأن هذا الأسلوب من الهجاء موجود لدى كافة الشعوب. وكانت ضخامة البظر تعدُّ من عيوب النساء فشتم الابن بصفة بظر أمه وهي خلقة من الله لا دخل للأم ولا لإبنها فيها فقيل له يا ابن البظراء أو يا ابن المتكاء من المتك وهو طرف البظر ومن ذلك قيل لها متكاء. وقيل المتكاءُ من المتك وهو عِرقُ بظر المرأة والمرأة العظيمة البظر

---

١) أنظر/ السِّفر الثاني من كتاب المخصّص لابن سِيده فيما يخصُّ فرج المرأة ص٤٠، وعيوبه في نفس الصفحة. وجاء فيه قولهم في شتم الشخص: يا ابن اللخناء واللخناء قبيحة رائحة الفرج.

لأن عرقه إذا عظم عَظُم هو. وقيل هي المفضاة أو الطويلة ما بين إسكتي فرجها والإسكتان بفتح الكاف وكسرها شَفَرا الرحم أو جانباه مما يلي شفريه أو قذتاه وقيل المتكاء التي لا تمسك البول.

وربما يستخدم هذا الشتم في سبّ قومٍ بأجمعهم. جاء ذلك في خبر عمر (رض) وكان في سفر فرفع عقيرته بالغناء فاجتمع الناس فقرأ سوراً من القرآن فتفرقوا فَعَل ذلك وفعلوا غير مرة فشتمهم وقال: يا بني المتكاء إذا أخذت في مزامير الشيطان (يقصد الغناء) اجتمعتم وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم (٢٨). وقيل أراد يا بني البظراء (٢٩) وجاء في (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٢٩٣) أن القائل هو عمرو بن العاص.

ويستخدم الشتم نفسه أي (يا ابن المتكاء) في شتم شخص بمفرده كما جاء في شتم عثمان لعمار بن ياسر، فقد أخرج البلاذري في (الأنساب) ج٥/ ٤٨ بالإسناد عن طريق أبي مِخنَف قال:

كان في بيت المال بالمدينة سَفَطٌ فيه حَليٌ وجوهر فأخذ منه عثمان ما حَلّى به بعض أهله فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه، فخطب فقال:

لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رَغمت أُنوف أقوامٍ. فقال له علي: إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أني أول راغم من ذلك. فقال عثمان أعليّ يا ابن المتكاء تجترئ؟ خذوه. (٣٠)

وقول عثمان لعمار يا ابن المتكاء يقصد أمَّهُ سُميّة بنت خباط وكانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة وكان ياسر حليفاً لأبي حذيفة فزوجه سُمية فولدت له عماراً فأعتقه أبو حذيفة. وأسلمت سمية وكانت أول من أسلم من النساء وأول شهيدة من النساء في الإسلام عذبت فماتت تحت التعذيب. (٣١)

* * *

وكان الختان يجري على هذا النوع من النساء إصلاحاً للعيب الولادي الذي لزمهن ومنه (العَفَل) وكانت المرأة تسب بهذا العيب فيقال لها (عَفلاء) ولابنها (يا ابن العفلاء) يعنون (ابن البظراء).

والعفلاء صفة أُخذت من (العَفَلة) وهي بَظارة المرأة. وعن ابن الأعرابي: العَفَل نباتُ لحمٍ ينبتُ في قُبُل المرأة وهو (القَرَن)

وكان حسب وصفهم كالدوالي التي تصيب الرِّجل وكانت الرِّجلُ تكوى لعلاجها. قال الشاعر:

ما في الدوائر من رجليَّ من عَقَلٍ

عند الرّهان وما أكوى من (العَفَل)

أي أن العَفَل كان يعالج بالكي. وقال أبو عمر الشيباني: القَرَنُ بالناقَةِ مثلُ العَفَل بالمرأة فيؤخذ الرَّضَف (وهو الحجارة) فتُحمى ثم يكوى به ذلك القَرَن.

قال: والعَفَلُ شيءٌ مُدَوّر يخرج بالفَرْج. قال: والعَفَلُ لا يكون في الأبكار ولا يصيب المرأة إلا بعد أن تَلِد. وقال ابن دريد: العَفَلُ بالنساء غِلَظٌ في الرحم. قال وكذلك في الدواب والتعفيل إصلاح ذلك. (اللسان/ عَفَل) والظاهر من خلال هذا الكلام أنه كان يعالج بالكيّ وربما بعد ذلك عولج بالبتر.

* * *

وكان سعد بن زيد بن مناة تزوّج (رُهْم بنت الخزرج بن تيم الله) وكانت من أجمل النساء فولدت له مالك بن سعد، وكان ضرائرها إذا سابنها يقلن لها: يا عَفلاء. فقالت لها أمُّها: إذا سابنك فابدأيهن. فسابتها بعد ذلك امرأةٌ من ضرائرها، فقالت لها

رُهم: يا عفلاء، فقالت ضرتها: رمتني بدائها وانسلّت فذهب قولها مثلاً. وقال ابن الأعرابي: العفلةُ بظارة المرأة.

ومن خلال هذا نستطيع أن نقول قولاً أكيداً بأنه ليس من الضروري أن تكون المرأة مصابة بالعيب المذكور فعلاً وإنما يقال لها ذلك لمجرد السَّبِ.

وكان الشخص إذا شُتم بأُمه المتكاء كان هذا الشتم يدل في معناه الباطني أن أُمّه من الإِماء كما في حالة عمار بن ياسر، كما إذا شتم آخر بأمه البظراء كان هذا الشتم يدل في معناه على أن أُمه نصرانية كما في حالة خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة الذي شتمه أهل الكوفة بهذه الشتيمة ونعتوه بابن البظراء لأن أمه كانت نصرانية والنصرانيات محرّم عليهن الختان حسب شرع المسيح الذي رفض الختان بكافة أنواعه أصلاً كما هو معروف وسنفصّل ذلك فيما يلي.

* * *

١٣

شتم خالد القسري بأمّه البظراء

لقد استمرت في المجتمع الإسلامي عادة هجاء الأشخاص بأمهاتهم إذا كن بظراوات فعلاً أو لم يكنَّ كذلك حتى زمن بني أمية، واستخدمه الناس في الصراع السياسي، يشهرون عن طريقه بالحاكم الظالم.

ويذكر التاريخ أن العراقيين استخدموه في هجاء واليهم خالد بن عبد الله القسري الذي تولى حكم العراقَين (الكوفة والبصرة) لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ فاستهتر وظلم الناس وتزندق وكان يجترئ على الله تعالى. وكانت أمه رومية نصرانية بنى لها كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة فكان إذا أراد المؤذن في المسجد أن يؤذن ضُرب لها بالناقوس، وإذا قام الخطيب على المنبر، رفع النصارى أصواتهم بقراءتهم.

فوجد الناس في ذلك مطعناً يطعنونه عن طريق أمه النصرانية حيث أن النصرانيات لا يمارسن الختان، فكان الناس في الكوفة إذا ذكروه في ذلك الوقت قالوا: ابن البظراء، فأنف من ذلك خالد وختن أمّه وهي كارهة فَعيّره الأعشى بذلك حين يقول له:

لعمـــرك مـــا أدري وإنـي لسائل ... أبظـــراء أم مختـــونة أمُّ خالـــد
فإن كانت الموسى جرت فوق بظرها ... فمـــا خُتِنَـــت إلا ومَصَّان قاعدُ
يـــرى سوأة من حيث أطلع رأسه ... تمرُّ عليها مرهفات الحدائد (٣٢)

قال شـارح كتـاب الأغـاني الـذي فيـه الخبـر: مَصّـان: يقـال للرجل يا مصان وللمرأة يا مصَّانة، مُراداً بكـلٍّ منهمـا أنـه يمـصّ بظر أمه والمراد بمصان هنا خالـد نفسه بـدليلِ قولـه فـي البيـت التالي (يـرى سـوأة مـن حيـث أطلـع رأسـه)، يريـد الأعشـى أن الحجّام حين استأصل بظر أم خالد، كان خالد يراقب ذلك عنـد استئصال ذلك البظر الذي كان يمصّه ويرى السوأة التي أطلعت رأسه يوم ولادته (الأغاني ١٥/٢٢)

أقـــول: ويبـــدو أن الأعشـــى أراد النكايـــة بخالـــد وفضـــحه بالخروج على التقاليد الإسلامية التـي تفـرض أن يخـتن المـرأة خاتنة أنثى مثلها ولكن خالداً أتى بحجّام ذكر فقام بقطع بظر أمه بموساه. هذا من جانب، ومن جانب آخر هجاه بمـص بظـر أمـه وهي شتيمة مقذعـة كـان يشـتم بهـا الرجـال وتعتبـر مـن تـراث الشتائم المقذعة عند العرب.

ويحتمل الخبر أن خالداً ربما بَحَث عن خاتنةٍ فلم يجد فجاء بحجامٍ ودليلنا على هذا حديث أبي بصير الذي ذكرناه وقد ورد فيه أن أبا بصير قال: (سألت أبا جعفر عليه السلام عـن الجاريـة

تُسبى من أرض الشرك فتُسلم فيتَطلب لها من يخفضها فلا نقدر على امرأة) أي لا يجدون خاتنة الأمر الذي يدل على أن ختان النساء لم يكن فاشياً في مجتمع العراق آنذاك فقلَّ عدد الخاتنات وربما ندر وجودهن لانتفاء الحاجة إليهن مما دعا خالداً أن يلجأ للحجام يطلب منه ختان أمه.

ويبدو لنا أن بَظَر المومى إليها كان شاذاً لذلك استوجب خفضه. والشذوذ في البظور يحدث عندما تهرم المرأة فإن بظرها يتضخّم ويتدلّى فوق شفريها ويعرف في هذه الحالة بـ(بظر عنق البَطّة) مما يستوجب خفضه لبشاعته وتعرضّه لنجاسة البول. ولا شك أن أم خالد كانت عجوزاً فبظرها كان ضخماً متدلياً مما استوجب خفضه. وفي هذه الحالة يجيز الشرع للمرأة أن تختتن. وقد جاء شرح هذا الأمر في فتوى (مركز العترة الطاهرة للدراسات والبحوث/ القسم الرئيسي: الفقه/ القسم الفرعي: استفتاءات وأجوبة/ الموضوع: تحقيق في ختان البنات. ما نصُّه:

(لا يجوز استئصال الغُدّة أو البظر وهي النواة على فرج المرأة لما فيها من الفوائد الصحيّة لها ... وإنما يستحب الخفض للمرأة في حال ظهرت قلفتها أو عُرفُها. أي تدلّت القلفة إلى خارج الفرج وإلّا فلا يُستحبّ، فيدور جواز أو استحْباب

الخفض في حال كان للأنثى قُلفة متدلية. ويسقط الاستحباب في حال لم يكن لها قلفة كما في غير الشرقيات القاطنات في المناطق الباردة، وهذا نظير الختان للرجل. فلو وُلد الذكر الطفل وليس له قُلفَة يسقط حينئذ الختان. بل وَرَدَ إنَّه تَمُرُّ عليه الموسى فقط. وبذلك يتضح أن الخفض ليس عاماً لكل النساء وحتّى اللاتي ليس لهن قلفة بل هو خاصّ بمن كنَّ يمتلكن قلفةً متدلية وذلك لأن خفض الأنثى إنما هو لإزالة الفضلة المدلّاة التي تُحرج المرأة عند الاستنجاء في المرحاض ومع زوجها، فإذا انتفت الفضلةُ انتفى حينئذ استحباب الخفض. فالخفض يدور مدار وجود القُلفة وإلا فلا، فهي سالبة بانتفاء الموضوع بحسب الاصطلاح المنطقي. كما يتضح أيضاً أن التعدّي إلى البظَر مَنهيٌّ عنه بقوله (صلوات الله عليه وآله): فأشمّي ولا تُجحفي ومعناه لا تظلمي بأخذ كثير من الموضع المعتاد وهو ما يدل عليه قوله: فأشمِّي أي خذي قليلاً لأنه أصفى للوجه وأحظى عند الزوج باعتباره يساعد على الإنزال فإذا زاد عن حدّه أدى ذلك إلى كرب المرأة نتيجة الأوجاع وشدّة النزيف مما يؤدي إلى التهابات حادة قد تودي بحياة المرأة كما يجري في بعض البلدان التي يقطنها العامّة ولا يوجد شيء من هذا القبيل في مجتمعنا الشيعيّ والحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)أ.هـ.

أقول: وحسب هذه الفتوى يكون ختان البنات الصغيرات باطلاً وكذلك النساء طبيعات البظور يكون ختانهن باطلاً أيضاً. وما يجريه الناس في البلدان الإسلامية من ختان على البنات محرّم حسب هذه الفتوى الشرعية عدا الشواذ من النساء اللائي يكون بظرها بارزاً كعرف الديك أو تتدلى لديهن القلفة إلى الأسفل فتخفي فتحة المهبل الأمر الذي يعيق الإِيلاج.

* * *

والحديث عن هذا النوع من البظور قلما يظهر في مناقشة أو في كتاب لكونه محرجاً يخدش الحياء. ولكنه قد يظهر في مجلس ترفع فيه الكلفة بين الأصدقاء مثلاً. وقد حدثني أحد الأصدقاء بأن زوجته من (متدليات البظور) فكان عندما يأتيها يُميل بظرها جانباً ويولج. قال لي هذا بعظمة لسانه.

وقد شاهدتُ بنفسي أنموذجاً من هذا النوع من البظور عند امرأة عجوز كانت تستحم عارية في حمام النسوان، وكنتُ آنذاك طفلاً وكانت أمي تأخذني معها إلى هناك فأرى النساء على علاتهن يحدثن ضجيجاً وعراكاً عندما يشحّ الماء فتبغي الواحدة منهن الاستحواذ على الأحواض الصغيرة الموزّعة في

جوانب قاعة الحمام. وفي ذلك اليوم كانت أمي قد استقلّت بحوض منها فجاءتها تلك المرأة العجوز وصرخت بها: انطيني الحوض وقد انتفش شعرها كغولة وترهَّلت مقاطع جسمها وتطَوَّت على بعضها فشاهدت ذلك الشيء يتدلى بين فخذيها كحَيَّةٍ قصيرة منتفخة فحسبتها رجلاً.

(سَوّي لي مكان) قالت بعنف وحشرت نفسها بين الحوض والجدار وراحت تستحم وأنا خائف منها. وعندما أنهينا استحمامنا وقفلنا راجعين إلى البيت، قلت لوالدتي:

(هل يمكن للمرأة أن يكون لها(باف)؟)

وكنا في الصّغر نُسمّي العضو الذكري (بافاً). فنهرتني أُمي وقالت: (أسكت عيب) فسكتُّ على مضض. ومنذ ذلك اليوم وحتى هذا اليوم لا زلت أتذكّر ذلك المنظر بألوانه الطبيعية وعراك المستحمات وصراخ العجوز (سّوِّي لي مكان) وذلك الشيء المخيف بين فخذيها.

* * *

ومن الذين صُدموا بمنظر البظر المُتَدلِّي، الحاج حسون الشفائي ـ كما أخبرني حفيده عبد الحسن ـ قال:

كان جدي يَعملُ (حَوّاجاً) تاجراً جوّالاً يجول بين مضارب البدو محملاً (الحوائج) على ظهر حمار له متوغلاً في صحراء شفاثة فإذا وصل خيامهم السود راح يصيح:

- حَوّاج .. حوّاج

فتخرج إليه البدويّات وينادينه فيوقف حماره قرب خيمة ويعرض حوائجه على الأرض فتتحلّق عليها البدويات ينتقين منها ما يحتجن إليه وقد لاحظ أن غالبيتهن لا يلبسن السراويل وهذا دأبهن وعادتهن منذ زمن بعيد. وقال محدّثي: وكان -شهد الله- لا ينظر إلى هذه المحرّمات ولكن في أحدى الجولات عندما تحلّقت أمامه البدويات كانت إحداهن وهي امرأة عجوز قد أهملت ستر عورتها فصارت العورة مقابل بصره وعندما لعن الشيطان الرجيم وأراد أن يغضّ ببصره عنها، لفت انتباهه شيء غريب أثار انتباهه وخوفه. فقد رأى شيئاً متدلياً بين فخذي العجوز ظنه جهازاً ذكرياً. وعندما رجع إلى البيت حدث زوجته بما رآه وأخافه فقالت له: لا تخف، إن المسألة عاديّة وطبيعية ففي هذه السنّ تحدث مثل تلك الحالة وتحتاج إلى ختان فتختن عادة.

نعود إلى بظر أم خالد النصرانية فنقول أنه يمكن أن يكون كبظر تلك العجوز فهي عجوز مثلها حتماً ولما كانت نصرانية

محرم عليها الختان فقد بقيت على حالتها إلى أن عَيَّر الشعب ابنها به فأرسل على الحجّام فقصَّ بظرها بموساه وتناوله التاريخ ووثقه الشعراء.

* * *

١٤

البظرمة في المصطلح اللغوي

وكانت نتيجة شيوع هجاء الأشخاص بعبارة (مُصّ بظر أمك أو جاريتك) إن انعكس ذلك على اللغة المحكية فظهرت فيها مصطلحات هجويّة بهذا المعنى مبتكرة لم تكن معروفة سابقاً، منها (البظرمة) ومعناها قول الشخص للآخر: مُصَّ بظر أمك ومن هذا المصدر جاء فعلٌ فقالوا: بَظرمَهُ إذا قال له ذلك.

ومن شتائمهم (علجةٌ بظراء) والعلجة المرأة غير العربية. وهو مُبظرّمٌ ومُتَبظرِم. ويقول الحجّام للرجل: تَبظرَمْ، فيرفع بطرف لسانه شفته العليا حتى يحفّ شاربه. ويقال للشخص: رُدَّ خاتمك إلى بظره وهو موضِعُهُ من الخنصر. (٣٣)

* * *

١٥

البظرمة بمصّ بظر (اللات)

وامتدت البظرمة من الأُم الحقيقية إلى الأم الكبرى المعبودة التي هي (اللات) فبظرموا بها الشخص إذا أرادوا شتمه فقالوا له: أُمصُصْ ببظر اللات. وقد استخدمها أبو بكر في شتم عروة بن مسعود الثقفي الذي جاء النبيﷺ في وفد قريش ليحاججَه في أمر الدعوة التي جاء بها فقال عروة للنبي:

(يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لِتفُضَّها، إنها قريش قد خرجت معها العُوَّذُ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله كأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. قال: وأبو بكر الصديق(رض) خلف رسول اللهﷺ فقال لِعروة:

أمصُصْ ببظر اللات . . إلخ الحديث. (٣٤)

وزاد ابن عائذ من وجه آخر عن الزهري: وهي أي (اللات) طاغيته التي يعبدها، أي طاغية عروة، وقوله: أمصص بصيغة الأمر. والبَظْر بفتح الباء وسكون الظاء قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة. و(اللات) اسم أحد الأصنام التي كانت قريش

وثقيف يعبدونها وكانت عادة العرب الشتم بذلك ولكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبدها مقام أمه.

وقال ابن المنير: في قول أبي بكر تخسيس للعدوّ وتكذيبهم تعريض بإلزامهم من قولهم أن اللات بنت من بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً بأنها لو كانت بنتاً لكان لها ما يكون للإناث. (٣٥)

أقول: ويكاد قول الزهري يكون قريباً من الصواب ودقة التحليل. فقد كانت اللات لها بيت يسمى (بيت الربَّة) يقصدون بالربّة اللات لأنها أنثى في نظر عابديها ومنهم ثقيف التي اتخذتها طاغوتاً. واللات كانت معبودة عند (النبط) أيضاً. واعتبروها أماً للآلهة جميعاً وهي في نظر (روبرتسون سمث) الإلاهة الأم لمدينة بطرا (البتراء) وكانت تعتبر عند اللحيانيين (الأم العذراء Vergin Mother)

وقد ذكرها الرحالة الأنكليزي (جيمس هاملتون) وكانت لا تزال في أيامه بالطائف وقد شاهدها فوصفها بأنها صخرة من الغرانيت ذات شكل خماسي وأن طولها زهاء أثني عشر قدماً (٣٦)

* * *

١٦

قصيدة شيطان العراق تنفي ختان النساء

في بغداد

هذه القصيدة الفريدة التي قالها شاعر بغدادي لم يُشتهر تفيدنا في إثبات أن النساء البغداديات لم يكن يجري عليهن طقس الختان. ولما كان الشاعر –كما يبدو من خلال القصيدة شيعياً– فإننا نستطيع الاستشهاد بها لتعضيد قولنا بأن الشيعة يرفضون ختان البنات كما ذكرنا سابقاً.

وقد أورد هذه القصيدة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م) في كتابه (معجم البلدان /١/١٣٨) أثناء الكلام على مدينة (إربل) (أربيل الآن) قال: وقد كان اشتهر نوشروان البغدادي، المعروف بشيطان العراق الضرير فيها سالكاً طريق الهزل، راكباً سُنن الفكاهة، مورداً ألفاظ البغداديين والأكراد ثم إقلاعه عن ذلك والرجوع عنه ومدحه لاربل وتكذيب نفسه.

والقصيدة تحتوي على أربعين بيتاً تقريباً جعل نصْفها لشتم الأكراد ثم انتقل من ذلك إلى الاعتذار منهم وشتم نفسه شتماً مقذعاً عكس به شتم الأكراد وكأنما كان يكفر عن ذنبه الذي اقترفه بحقهم بهذا الأسلوب. يأخذ في البداية بشتّم شيطانه الذي سَوّل له أن يذهب إلى أربل وينزل فيها قائلاً.

تَبّاً لشيطاني وما سَوّلا لأنه أنزلني أربلا
نزلتها في يوم نَحسٍ فما شككتُ أني نازل كربلا

ومن هذا البيت يبدو لنا أنه شيعيّ إذ يعتبر الشيعة أن كربلاء هي أرض كربٍ وبلاء حسب قول الشهيد الحسين بن علي عليه السلام المأثور عنه: أنها أرض كربٍ وبلاء.

ثم يمضي الشاعر بالقول:

وقُلتُ ما أخطا الذي مَثَّلا إربل، إذ قال بيتَ الخَلاَ
هذا وفي البازار قومٌ إذا عاينتهم عاينتَ أهل البَلا
من كلِ كرديّ حمارٍ ومن كلِ عراقيّ نفاه الغَلا

ونفهم من هذا البيت أن العراقيين الذين سكنوا هذا القطر قد نفاهم الغلاء في موطنهم فذهبوا إلى إربل للارتزاق وطلب العمل فلم يجدوا وكان منهم شاعرنا الضرير، وما أشبه اليوم بالبارحة.

ثم يمضي بعد ذلك ذاكراً لغة العراقيين هناك ويقابلها بما يماثلها من لغة الأكراد وصياحهم وزعيقهم في السوق (البازار) كما هي الحال في أسواق أربيل في يومنا هذا. يقول:

وفتيةٍ تزْعق في سوقهم سرداً، جليداً صوتهم قد علا

وعصبةٍ تزعق والله تنفر وشوتَرايم هم سخام الطلا

رَبعٌ خلا من كلِّ خير بَلى من كل عيب وسقوط ملا

(أي امتلأ بالعيوب)

فلعنة الله على شاعرٍ يقصد ربعاً ليس فيه كلا

(أي حشيش)

ثم يعود إليه عقله فيعتذر عن هجائه لاربل ويمدح الرئيس مجد الدين داود بن محمد فيقول:

قد تاب شيطاني وقد قال لي لا عدتُ أهجو بعدها إربلا

ثم يأخذ بشتم نفسه تكفيراً عن ذلك الشتم الذي أوقعه بأهل إربل فيصور امرأة من أهل بيته تقول له:

واقصِد إلى أربل واربع بها ولا تقل ربعاً قليل الكلا

وقُل: أنا أخطأتُ في ذمها وحُطّ في رأسك خُلع الدّلا

(يقصد دلاء الخمر)

وقُل: أبي القرد وخالي وأنا كلبٌ وإنّ الكلب قد خوّلا

وعمـتي قادت على خالتي   وأمي القحبة رأس البـــلا
وأختـــي (القلفاء) شَبّارةً   مَلّاحهاقد ركب الكوثلا[1](٣٧)

أقول: وهذا البيت الأخير هو مقصدنا الذي يمكننا أن نحتج به كشاهد على قولنا أن العراقيين بصفة عامة والشيعة بصفة خاصة لا يختنون نساءهم حيث ذكر الشاعر أن أخته -التي جاءت معه إلى إربل- كانت (قلفاء) أي لم تختتن حيث الاختتان يُطيح بقلفة البظر فإذا لم تختتن بقيت القلفة تغلف البظر وحينذاك تسمى تلك المرأة (قلفاء) و (غلفاء) أيضاً والرجل (أقلف) و (أغلف). وقد أراد الشاعر من ذلك أن يجعل أخته شاذة بين الأكراد لأن الأكراد يختنون نساءهم.

* * *

---

١) قوله: شبّارة أي نكاّحه. والكوثل: الخيزران وقيل : سكّان السفينة ولعله يقصد (المردي) الذي يستخدمه الملاح لدفع السفينة ويصنع عادة من الخيزران والمعنى بمجمله يكنى عن العمل السيّئ.

١٧

دلالة لفظة (الطهور) في المجالات الشعبية

يستخدم العراقيون اليوم كلمة (طُهور) بضم الطاء للدلالة على عملية ختان الأولاد. ولا يستخدمون كلمة (خَتَنَ) أو (أعْذَرَ) التي هي كلمة أخرى تدل على الختان بل يقولون طهَّر وَلَدهُ ولم يُسمع منهم طهَّر بنته، وقد جاء في تاج العروس في المستدرك على طهَّرَ: وقد طَهَّر فلان ولده إذا أقام سنّة ختانه. والختان هو التطهير وعند الأتراك يسمى (سُنَّتْ).

وجاء في (دوزي): طهَّر بمعنى خَتَن، معنى كثير الاستعمال وقديم بعض القدم (٣٨). وقال صاحب شفاء الغليل (ص/٣٠): إن استعمال كلمة (الطهور) للختان شائع ولا أراه عربياً قحاً. ومنذ القرن العاشر استعمله بهذا المعنى كثير من المؤلفين وقد جمع فليشر أمثلة على استعمال هذا الفعل أخرجها من ألف ليلة وليلة (٣٩).

و(الطَّهّار) في لهجة العرب في شمال أفريقيا هو الخَتّان وهو عندنا في الشعبية العراقية (مطهرچي) ولم يشتق من هذا اللفظ اسم للخاتنة النسائية الأمر الذي يدل على عدم وجودها.

وفي العصر العباسي كان يوكل إلى (المزيّن) بختان الأولاد. وعندما خُتن المعتز إبن المتوكل أوكل للمزين (أبي حرملة) بإعذاره أي ختانه وأبو حرملة كان حجاماً أيضاً كما سيأتي ذكره.

والمزين هو الحلاق الذي يحلق الشعر وفي الشعبية الكربلائية كان لا يطلق على من يحلق الشعر اسم الحلاق وإنما يطلقون عليه اسم (المزيّن) والكويتيون يطلقون عليه اسم (المحَسِّن).

وفي العصر العباسي كان يطلق على الحَلاّق اسم المزيّن كذلك. وقد ذكر الشعراني في (العهود المحمدية/ ١٣٩) أنه قد حلق شخص لإبراهيم الخواص رأسه على ما يفتح الله به. فجاءه وهو يحلق ألفُ دينار فدفعها إلى (المزيّن). فرماها المزين وقال للخوّاص: أما تستحي؟ تقول لي أحلق رأسي لله ثم تعطيني شيئاً من الدنيا، والله ما حلقت لك إلاّ لله ورماها للناس.

أقول: ومن وظائف المزين عندنا ختان الأولاد بالإضافة إلى حلاقة الشعر ويقوم كذلك بعملية الحجامة وقلع الأسنان والتضميد وخياطة الجروح.

وفي المأثورات التاريخية أن المزيّن يحلق الآباط كذلك فقد حكي عن يونس بن عبد الأعلى قال: دخلت على الشافعي

رحمه الله وعنده المزيّن يحلق أبطيه فقال الشافعي: علمتُ أن السُنَّةَ النتفُ ولكن لا أقوى على الوجع. ويستحب أن يبدأ بالإبط الأيمن (نيل الأوطار/ الشوكاني/١/١٣٤).

وهكذا أجاز الشافعي لنفسه أن يحلق المزين أبطيه دفعاً للوجع. وكان الناس يستخدمون الإطلاء بالنورة لهذا الغرض وذكر أن أحد الأعراب دخل الحمام فتنوّر فأحرق ما بين فخذيه. لأن النورة إذا زاد مكثها على الجلد أحرقته.

* * *

وحدّثني الصديق (أبو عماد البصري) (٧٥ سنة) وكان يعمل فلاحاً في بساتين الفاو والبصرة عن زوجة أخيه أن والدها زارها في بيتها فحدث أن تشاجرت بناتها الصغيرات وأحدثن ضجَّة أزعجت الجدّ فأراد إسكاتهن فهدّدهن بهذا القول:

(تره إذا ما تسكتن أطهرچَن)

فاستغربت أُمهن من هذا الكلام حيث لم تسمع بمثله يقال للبنات في محيطها فسألته عن معناه. فقال: يعني أقصّ بظورهن. فتعجبت وقالت: هل يحدث هذا؟ قال: كان يحدث قبل أكثر من خمسين عاماً في بعض مناطق أرياف البصرة البعيدة وقد انقرض اليوم.

والتهديد هذا في العادة يقال للطفل المشاكس (تره أگصه) يقصدون بذلك أحليل الطفل وقد يقال له: تره أطهرك فيخاف الطفل لأن لفظة الطهور تفزعه. أما البنات فلا يقال لهن ذلك.

* * *

١٨

الختّانون الجوّالون

وقد اختص بعض الأشخاص بالختان وحده دون ممارسة غيره من العمليات الأخرى. ويطلق عليهم في العراق اسم (الزعريتة) والواحد منهم (زْعِرتي) بسكون الزاي أو كسرها. فإذا حلّ موسم الختان ويكون في الربيع عادة، تراهم يجولون في المدن حاملين عدّتهم في حقيبة من الجلد كحقيبة الطبيب تقفل من الأعلى ولها مقبض فوق القفل وفي داخلها أدوات الطهور وهم ينادون:

زعرتي . . زعرتي . . مطهرچي

فيناديهم الناس لختان أولادهم. فأما أن يكون الولد مهيّئاً للختان مسبقاً أو يواعدون الزّعرتي على يوم معين.

والزعرتي منسوب إلى (زْعِرت) التي هي (سْعِرد) من مدن ديار بكر وماردين في تركيا[1] ولهم زيٌّ خاص. يلبسون سروالاً فضفاضاً طويلاً كسراويلات الأكراد ويعتمرون طاقية شبيهة بطاقية الأكراد ويبدو أن هذا الزي من أزياء أهالي (سْعِرد) ولكنه يمتاز بالسروال المقصب المزركش.

وكان قسم من هؤلاء الزعرتية من الملّة اليهودية امتهنوا هذه المهنة لأنهم من جملة (أهل الختان) فبرعوا بها بالوراثة والناس يميلون إليهم بسبب المهارة.

وقد هجرت اللفظة الآن وصار الناس يطلقون على القائم بالعملية اسم (المطهرچي) والجمع (مطهرچية). ثم اعتاد الناس في الآونة الأخيرة أن يطهروا أولادهم عند الطبيب.

* * *

[1] جاء في (تاريخ ابن خلدون ١٤٤/٥/) أنها من مدن ديار بكر وأن التّتَر ملكوها عنوة وخربوها. وسعرد بالكسر ويقال فيه أيضاً سعرت (القاموس المحيط)

١٩

احتفاليات ختان ذكورية

١- احتفالية إعذار المعتزّ

من أشهر احتفاليات التاريخ بهذا الشأن ذكرها المؤرخون كأنموذج فريد للبذخ والإسراف الذي فاق كل احتفاليات مشابهة من ناحية الانفتاح على التبذّل والبذل مع مهارة التنظيم ودقته والعناية بالرسوم الواجب إتباعها لحفظ هيبة دار الخلافة ونحن نجملها بالنقاط التالية:

١- **الجانب التنظيمي:** أوكل إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل وهو كاتب وأديب فارسي الأصل يبدو أن لديه خبرة بهذه الأمور.

٢- اختيار المكان: وقع الاختيار على القصر المعروف ببركوار الذي بناه المتوكل لولده المعتز وكان من أحسن قصور المتوكل وأجلّها ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المذكور فتقرر أن

تكون حفلة (الإِعذار) فيه وموقعه في سامراء ومعناه في الفارسية (البَهيّ).

٣- ولما كان عدد المدعوين كثيراً فصار الاختيار على قاعة إيوان القصر ولذلك احتيج إلى بساط واحد يسعها ويغطّي أرضيتها فأمر المتوكل وزيره المذكور أن يلتمس البساط في خزائن الفرش في طوله وعرضه وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ذراعاً فوجدوه فيما صودر من مخلفات هشام بن عبد الملك على طول الإيوان وعرضه وكان بساطاً إبريسماً مذهباً فلما رآه المتوكل أعجب به وأراد أن يعرف قيمته، فجمع عليه التجّار فذكر أنه قوّم على أوسط القيم عشرة آلاف دينار فبُسط في الإيوان وبسط للخليفة في صدر الإيوان سرير ومدّ بين يديه أربعة آلاف مِرفع مرصع بالجوهر فيها تماثيل العنبر والندّ والكافور المعمول على مثل الصور. منها ما هو مرصع بالجوهر مُفرداً ومنها ما عليه ذهب وجواهر وجعلت بساطاً ممدوداً وأُحضر الأمراء والقُواد والندماء وأصحاب المراتب فأُجلسوا على مراتبهم.

٤- الهبات والخِلَع:

ولما جلس المذكورون على البساط مُدّ السماط وجعل بين صوانيهم والسماط فُرَج. وجاء الفراشون بزُبُل (جمع زنبيل) وقد غُشيت بأدم (جلود) مملوءة دنانير ودراهم نصفين فصُبَّت في تلك الفُرج حتى ارتفعت، وقام الغلمان فوقها وأمروا الناس عن الخليفة بالشرب وأن ينتقل كل من شرب بثلاث حفنات ما حَمَلت يداه من ذلك المال. فكان إذا أثقل الواحد منهم ما اجتمع في كُمّه أخرجه إلى غلمانه فدفعه إليهم وعاد إلى مجلسه. وكلما فرغ موضع أتى الفراشون بما يملأونه به حتى يعود إلى حاله.

وخلع على سائر من حضر ثلاث خِلَع لكل واحد.

٥- عِتق العبيد:

واعتيد منذ أزمان بعيدة على عتق العبيد في المناسبات الخاصة المفرحة، فعلى أساس هذا التقليد أعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد، وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم وثلاثة أثواب.

٦- ضَرْبُ السكة التذكارية:

وكان من التقاليد المعروفة في المناسبات المهمة أن تضرب سكة من الدراهم والدنانير باسم المناسبة لتخليدها فضرب سكة بمناسبة إعذار المعتز أمرت بها أمه (قبيحة) فضرب لها ألف ألف درهم (يعني مليون) طُبعت عليها هذه العبارة : (بركة من الله لإعذار أبي عبد الله المعتز بالله) فنثرت على المزيّن) ومن في حيّزه والشاكرية (فرق من الجند) وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان.

وقبيحة هذه كانت رومية فائقة الجمال فسميت قبيحة وهو من أسماء الأضداد، توفيت بسامراء سنة ٢٦٤هـ

٧- ما نُثِر على الرؤوس:

ومن مراسيم هذه الاحتفالات المعروفة إلى اليوم أن ينثر على المختون وعلى رؤوس أصحابه والمحتفلين كميات من قطع الحلوى والملبس نُسَمّيها عندنا باسم (الويهلية). أما في ذلك اليوم فقد نثر الفتح بن خاقان على رؤوس الراقصات وخدم الدار والحاشية ما كان أعدّه لهم وهو عشرون ألف ألف درهم، فلم يقدم أحد على التقاط شيء فأخذ الفتح درهماً فأكبت الجماعة على المال فنُهب.

٨- الفواكه والأزهار:

وقد وزعت في تلك الحفلة أنواع الفواكه من الأترج والنارنج على قلته في ذلك الوقت والتفاح الشامي والليموه أي الليمون.

أما الأوراد فقد كان النرجس والبنفسج حاضرين يطيبان المجلس برائحتهما العطرة فوضعت خمسة آلاف باقة نرجس وعشرة آلاف باقة بنفسج.

٩- الراقصات الشعبيات:

ويطلق عليهن اسم (البلّيّات) وكان عددهن أربعمائة راقصة وينسبن إلى مدينة (الأُبُلّة) التي كانت قريبة من البصرة وكن يقمن فيها مع المخنثين فجيء بهن ليوزّعن الفواكه على الحاضرين وكان بأيديهن ألف طبق من الخيزران فيها الفواكه التي ذكرناها.

١٠- المغنون والمغنيات:

وقد شارك في الحفلة أشهر المغنين والمغنيات فمن المغنين: عمرو بن بانه، أحمد بن العلاء، ابن الحفصي، ابن

المكيّ، سَلْمَك الرازي، عثعث، سلمان الطبّال، المسدود، أبو حشيشة، ابن القصار، صالح الدفّاف، زنام الزامر، وتفاح الزامر أيضاً.

ومن المغنيات: عُريب، بدعة جاريتها، سَراب، شارية وجواريها، نَدمان، منعم، نجلة، تركيّة، فريدة، عرفان.

١١- الشخصيات الرسمية:

وكان ممن حضر المجلس ذلك اليوم، محمد بن المنتصر وأبو أحمد وأبو سليمان ابنا الرشيد وأحمد والعباس ابنا المعتصم وموسى بن المأمون وابنه حمدون النديم وأحمد بن أبي رؤيم والحسين بن الضحاك وعلي بن الجهم الشاعر وعلي بن يحيى المنجم وأخوه أحمد.

١٢- طريقة تقديم النبيذ:

وكان شرابهم النبيذ وطريقة تقديمه أن يضع الساقي منديلاً على كتفه ويقدم كأس النبيذ بيد من يطلبه. وهي طريقة شبيهة بطرق تقديم الخمر في الخمارات البغدادية في هذا العصر.

وكان يحيى بن خاقان متولّي ديوان الخراج للمتوكل حاضراً وابنه عبد الله يقف موقف الخدم بقباء ومنطقة وكان أبوه

يحيى لا يشرب النبيذ، فقال المتوكل لعبد الله: خذ قدحاً من تلك الأقداح واصبب فيه نبيذاً وصَيِّرْ على كتفك منديلاً وامض إلى أبيك يحيى فضعه في كفه. ففعل، فرفع يحيى رأسه إلى ابنه فقال المتوكل: يا يحيى لا تردّه. قال: لا يا أمير المؤمنين فهنأك الله النعمة ولا سلبنا ما أنعم به علينا منك. فقال: يا يحيى إنما أردت أن يخدمك وزير بين يدي خليفة في (طهور) ولي عهد. وكان ابنه عبد الله آنذاك وزيراً للمتوكل.

١٣- المزيّن:

وكانوا قد احضروا المزيّن لطهور المعتز ولا شك أنه أشهر المزينين في سامراء وكان مزيناً للمتوكل نفسه واسمه أبو حرملة المزيّن ويطلق عليه أيضاً اسم أبي حرملة الحجّام يعني أنه حجّام في نفس الوقت وكان قد حصل على نثار من تلك الدراهم التي ضربتها (قبيحة) بمناسبة إعذار ابنها، فسأله إبراهيم بن العباس: يا أبا حرملة كم حصل لك إلى أن وضع الطعام؟ فقال: نيّف وثمانون ألف دينار سوى الصّياغات والخواتيم والجواهر العتيدات. والعادة هذه معروفة لدينا إلى اليوم حيث يضع المطهرچي الغلفة التي قطعها في صينية مغشاة بقطعة قماش

بيضاء ويدور بها مساعده على الحاضرين فيلقون في الصينية ما يجودون به ويسمى ذلك نقوطاً.

١٤- إحصاء النفقات:

ثم أقام المتوكل ببركوار ثلاثة أيام ثم أصعد إلى قصره الجعفري، وتقدَّم بإحضار إبراهيم بن العباس وأمره أن يعمل له عملاً (أي إحصاء بما أنفق) في هذا الإعذار ويعرضه عليه ففعل ذلك فاشتمل العمل على ستةٍ وثمانين ألف ألف درهم. (٤٠)

* * *

٢- احتفالية ختانِ ابن السلطان مراد الثالث

وهي من أشهر الاحتفاليات الختانية في عهد بني عثمان، أقامها السلطان الفَظّ مراد الثالث ابن السلطان سليم الثاني (١٥٤٦ – ١٥٩٥م) لولده. وكان هذا السلطان قد قتل جميع أخوته قبل أن يتسنم عرش السلطنة سنة ١٥٧٤ لكي لا يزاحموه على تولي العرش ولذلك وصفناه بالفظّ.

قيل عن هذه الحفلة أنها لم يعرف التاريخ لها مثيلاً لا من قبل ولا من بعد وربما فاقت حفلة إعذار ابن المتوكل. فروي أنه أقيمت الأفراح خمسة وخمسين يوماً أنفقت فيها الملايين وحضرها مندوبون من جميع الدول واتجهت أنظار العالم إلى قطعة جلد ستقطع من طفل.

وكان هذا السلطان قد أقام علاقات حسنة مع فرنسا والبندقية وإنكلترا لذلك كان مندوبو تلك الدول مدعوين لحضور الحفلة فأقيمت القصور الفخمة لسكناهم ولسكنى الضيوف من ملوك وأمراء دول الغرب. وهدمت أحياء بأكملها ليقام فيها الاحتفال ووسعت الشوارع لمرور الموكب وأقيمت السرادقات والمسارح وجيء بالممثلين والمشعوذين وأرباب الألعاب من كل قطر حتى أصبحت العين لا تحصي عدد الملاهي حيث يمّر الدراويش والراقصات والمغنون والخيالة وحملة الرماح وألعاب الفروسية.(٤١)

كل ذلك حدث ولم نسمع أو يُشر التاريخ إلى احتفالية مماثلة أقيمت لختان إمرأة، ألا يدل على عدم وجود ختان النساء؟

* * *

٣- حفلة طهور أمين المميِّز

وقد استمرت في العراق تجري حفلات ختان الذكور الشعبية ولكن حسب المقدرة الاقتصادية لأهل المختون وتتدرج من البساطة بالنسبة للطبقات الفقيرة حيث تقتصر على الأقارب ثم تمتد وتتسع بالنسبة للطبقة المتوسطة فتشمل أفراد المحلة. أما الطبقة الثرية فيمتد احتفالها فيشمل المدينة ودعوة الخاصة من كبار المسؤولين ودعوة العامة أيضاً.

ولدينا من هذه الاحتفاليات الأخيرة احتفالية ذكرها محمد أمين المميز السِّياسي العراقي والدبلوماسي المعروف المولود في بغداد سنة ١٩٠٨ أقامها أهله الأثرياء لختانه وكان عمره آنذاك قد تجاوز ثماني سنوات. وقد تحدث عنها مستعملاً المصطلحات الشعبية البغدادية وهي ليست بغدادية في الواقع بل عراقية يستخدمها غالبية العراقيين في مناطقهم قال:

(والحديث عن طهوري حديث ذو شجون فقد أصبح (قصة عنتر)[١] في محلة (الدنگچية). لقد جرى طهوري في هذا البيت بالذات (يقصد بيت أهله الواقع في المحلة المذكورة) في يوم من أيام الربيع وكنت قد تجاوزت الثامنة من عمري وتأخر

---

1) قصة عنتر قصة شعبية كانت تقص على الناس من قِبَل (القصه خون) في المقاهي يُضربُ بطولها المثل .

طهوري كثيراً إذ أن أخي الكبير طهّره المرحوم (أوسطه ناصر) وهو دون الأربعين يوماً من عمره.

كان يومئذ أحد (الزعرتيّه) واسمه جرجيس يتردد على الدنكچية بين حين وآخر. وكان كلما يمرّ في دربونتنا ويشاهدني ألعبُ مع الأولاد يخاطبني قائلاً: (أمين والله لقُصّو) ويهدّدني بأصبع السبابة (ويلاحظ القارئ من اسم الرجل ومن لهجته أنه يهودي).

وبعد إلحاح الأهل والأقرباء والأصدقاء على أهلي بلزوم المبادرة إلى طهوري بالنظر لفوات الوقت، قرروا تعيين موعد الطهور واتفقوا مع جرجيس على أن يكون الطهور يوم الجمعة التالي.

وفي ليلة الطهور أقمنا حفلة كبرى (چالغي) أي (حفلة غنائية باللغة التركية) تولى تنظيمها عبد القادر المميزً وكان يومئذ في شرخ شبابه مُلماً بكل ما يتطلبه الچالغي من مأكولات ومشروبات ومزّات وراقصات وچالغچية (مغنين) وغير ذلك. وكان سكان الدّنكچية وكثير من سكنة بغداد يذكرون تلك الحفلة بعد سنين طويلة من إقامتها.

بدأت الحفلة بعد العشاء بالعزف والرقص وأُديرت (بطالة حليب السباع)[1] على الضيوف بدون حساب، فشربوا حتى الثمالة. وبعد أن تَسَرَّب الخبر إلى الخارج وصوت الدنبك يرگع[2] حتى أخذ الضيوف غير المعزومين[3] (الذين يعرفون في البلاد الأجنبية بمقتحمي الأبواب) يتقاطرون على البيت من كل حدْبٍ وصوب.

- دورية الجندرمة بأسلحتهم[4].

- الچرخچية، الأقشمچية، والصبحچيّة في غير الأوقات المقررة لهم (والمصطلحات هذه تطلق على أنواع حراس المدينة).

- السكارى الذين أكملوا سهرتهم في المايخانات (الخمارات) والتياتروات (محلات اللهو) والگهاوي (المقاهي)

---

١) بطالة: جمع بُطل وهو القنينة الزجاجية. وحليب السباع هو العرق القوي الذي يستخلص من تقطير التمر المخمّر ويجعل شاربه يحس بأنه كالسبع وهماً فيقوم بالاعتداء على الناس والعربدة.

٢) الدنبك : الطبل ويرگع يقصد أنه شديد الصوت

٣) غير المعزومين يقصد الذين لم يستدعوا إلى الحفلة.

٤) الجندرمة:الجنود الأتراك لأن الحفلة كان زمن احتلال الأتراك للعراق

ـ الشلاتية (القبضايات) على اختلاف طبقاتهم وتباعد محلاتهم من محلة الدنگچية.

وما إن ضربت الخمرة في رؤوس الجميع حتى بدأ العراك وضرب السچاچين (السكاكين) وإطلاق الرصاص ولم يبق من يحافظ على الأمن لأن الدورية أنفسهم مچطلين (مطروحين من السكر) في البيت وفي الدربونة. أصبح الصبح والبيت گايم گاعد الأمر الذي اضطرنا إلى تأجيل عملية الختان إلى اليوم التالي.

وفي اليوم التالي حضر الزعرتي جرجيس لابساً شرواله (سرواله) التقليدي ومتحزماً بحزام من القماش من أعلى صدره حتى أسفل بطنه وعلى رأسه (جَزّيّة) (قطعة قماش مصنوعة من خيوط ديدان القزّ) على شكل عمامة رفيعة ملفوفة حول كلاو (أي طاقية) من الچبَن (صوف مكبوس)، حاملاً حقيبة صغيرة فيها أدوات الطهور وهي الموس (الموسى) والقرّاصة والميل والمواد اللازمة لضماد الجرح وهي الخام والقطن والشاش ومسحوق مائل للخضرة يشبه فتات الآسبست يسمونه (تراب حرير). فجيء بي إلى الطرار (وهو القسم المرتفع من البيت) وأنا أرتجف وأرتعد. وجلس المرحوم خالي على مخدّه كبيرة وأمسك بذراعي الأثنتين بكل قوة ورفعني إلى أعلى بحيث لا

أستطيع أن (أفرفص) (أرفس) وبدأ جرجيس بعملية الختان. ولما انتهى منها وأنا أبكي وأصرخ (وقيَّمت القيامة)[١] من شدة الألم. ضَمَّد الزعرتي الجرح بقطعة من الخام وقليل من القطن والشاش بعد أن وضع عليه قليلاً من المسحوق المذكور[٢] ثم صار يتردّد عليّ لتبديل الضماد عدة مرات في الأسبوع ويظهر أن الجرح قد ألتهب فكثر تردد الزعرتي لتبديل الضماد وكان كلما بدله (تشيغ روحي)[٣] من شدة الألم فصار يحتج بأن لحمي نگس (نجس) ولذلك صار يظهر (لحم الحي) والحقيقة هي أنه هو (النگس) ولذلك لم يلتئم الجرح بسرعة.

مرّ أسبوع واسبوعان وثلاثة أسابيع والجرح لم يلتئم فانقطعت عن المدرسة وكنت إذا خرجت من البيت إلى الدربونة أرفع دشداشتي من منتصفها بأصابع يدي لئلا يلّچم الجرح (ينلكم) وأمشي وأنا أفاخج (أمشي كالأعرج) وبعد

---

١) تعبير شعبي يقوله الناس للشخص يتشاجر بعنف ويصيح بصوت عالٍ بأنه (قيّم القيامة) والمقصود بالقيامة يوم الحشر.

٢) وهو تراب الحرير ويتكون من مزيج من مسحوق الشبّ والملح والقهوة أو الشاي وورق الشوك أو الشنان ولهذه المواد فاعلية تخثر الدم وتقليص الأنسجة.

٣) تعبير شعبي معناه: أغيب عن الوعي وبعضهم يقول: تشوغ روحي

مضي أكثر من شهر التأم الجرح وداومت في المدرسة ورفع الله ما كان أعظم. (٤٢)

* * *

٤- احتفاليات ختان أولاد العامّة

وكان لأولاد العامة عندما يختتنون تقام لهم احتفاليات بسيطة ليس فيها تلك البهارج والمباذل المخالفة للدين كشرب الخمور والرقص واستجلاب المغنين والمغنيات وغير ذلك مما مَرَّ في النماذج الثلاثة السابقة.

وقد وصف لنا الباحث الفولكلوري المرحوم عبود الشالچي المحامي والقاضي تلك الاحتفاليات التي كان يجريها العامة في بغداد لختان أولادهم فقال:

(وكان ختان الصبيان البغداديين يجري في احتفالات ذات بهجة إذ يلبس الصبيّ المراد ختانه دشداشة بيضاء جديدة ويُحمل على حمار ويحفُّ به من تهيّأ ليختن معه من الصبية وقد لبس كلٌّ منهم دشداشة بيضاء جديدة ووضع على رأسه عرقچين (طاقية) أبيض مطرَّز بخيوط من الحرير الملون وترفع أمامه صوان فيها أنواع الحلويات وقد غرزت فيها شموع مضاءة وزينت بالآس والورد.

ويجري الاحتفال والمرور بالشوارع في موكب شبيه بموكب ختم القرآن إلا أن موكب الطهور لا يُنشد فيه الشعر ولا يصيح فيه الحاضرون آمين، فإذا عاد الصبية إلى حيث يجري طهورهم يكون الحلاق أو السعرتي (نسبةً إلى سعرت) الذي يقوم بعملية الختان حاضراً وقد حفّ به الأقارب والجيران والأصحاب، ثم يحمل الصبي، وقد أمسكه اثنان من جانبيه إمساكاً جيداً لئلا يفلت فيفرّ. فإذا تمكَّن منه الحلاق أومأ إليهم فملأوا فمه بالسكّر والحلوى ثم أتمّ عمليّة الختان والصبيُّ لا يقدر على الصراخ للحلوى التي في فمه، ولو أمكنه الصراخ لما سُمِعَ صوته لأن الحاضرين يرفعون أصواتهم بالصلاة على النبي فيحدثون ضجّةً لا يسمع معها صراخ. (٥٦)

أقول: أن الموسوعي الكبير عبود الشالچي الذي ذكر هذا التقرير لم يترك شيئاً من تقاليد وعادات الناس وتعابيرهم وكناياتهم دون أن يذكره في موسوعته الكبرى (موسوعة الكنايات العامية البغدادية) التي تتألف من ثلاثة أجزاء. ولو كان ختان البنات أو النساء جارياً في العراق لما حَجَب ذكره لأنه كشف في هذه الموسوعة حتى الأمور الواجب سترها الأمر الذي يقطع الكلام عن وجود عادة ختان البنات في العراق.

* * *

٢٠

تقرير مثير عن ختان النساء في أهوار العراق

إلا أن ثمّة تقريراً مثيراً للقلق جاء من منسّق منظمة (وادي) أرسله كمذكرة حول موضوع ختان النساء إلى مجلس النواب العراقي، وتمَّ فتح النقاش بالموضوع وكسر الجليد حوله وخصوصاً بعد الأنباء بانتشار الظاهرة في وسط وجنوب العراق يعني انتشارها بين أهالي منطقة الأهوار الواسعة التي تدخل حدود إيران والبصرة والعمارة والكوت (واسط) وطالب الحكومة والبرلمان الاتحاديين بتشريع قانون خاص للحدّ من انتشار هذه الظاهرة وعدم الاكتفاء بقانون العقوبات العراقي الذي صدر عام ١٩٦٩.

وينص القانون أعلاه أن من اعتدى على آخر بالجرح أو بالضرب أو بالعنف أو بإعطاء مادة ضارة أو ارتكاب أي فعل آخر مخالف للقانون يسبّب عاهةً مستديمة. وتتوفّر العاهة المستديمة إذا نَتَجَ عن الفعل قطع أو انفصال عضو من أعضاء الجسم أو بتر جزء منه يعاقب بالسجن مدة لا تزيد من ١٥ سنة. (٤٤)

أقول: لا شك إن هذا التقرير اعتمد على السماع. وما ذكره عن انتشار عادة ختان النساء في وسط وجنوب العراق غير صحيحة وأنا ـ كاتب هذا البحث- عشت زمناً في تلك المناطق بحكم عملي كمدرس يتنقل بين المدن والقرى هناك فلم أشاهد ولم أسمع أن بنتاً شيعيّة أو سنيّة قد ختنت.

وقد أعْتَذِر عن الامتداد في تلك الأقاصي من الأهوار فلا يمكنني أن أبتَّ بالجزم في عدم وجود تلك العادة هناك إلا أنني أستطيع أن أستعين بتقارير الأوربيين الذين سكنوا سنين بين شعوب الأهوار وكتبوا كل شيء عنهم فلم يذكروا وجود هذه العادة بينهم. وأخص بالذكر منهم (ولفريد ثيسيغر) مؤلف كتاب (عرب الهور) الذي عاش في تلك المناطق مدة طويلة وفصل جميع أجزاء الحياة فيها وتقاليد الناس وعاداتهم فلم يذكر شيئاً عن حالة واحدة لختان امرأة أو بنت صغيرة أو كبيرة وإنما كتب فصولاً مطوّله عن ختان الصبيان والرجال فقد كان هو الذي يقوم بختانهم فيأتون إليه من القرى البعيدة زرافات ووحداناً فيختتنهم. وسنجمل فيما يأتي مقالته عن هذه الطقوسية الرجالية لما فيها من فائدة كبيرة لها علاقة بموضوعنا (ختان البنات).

❋ ❋ ❋

٢١

مذهب أهل الأهوار

منذ البدء الذي صعب على التاريخ تحديده كانت هذه المنطقة المائية الواسعة مقراً لشعوب كثيرة مختلفة الأعراق واللغات والديانات. وتحدثنا الجواميس المستلقية على حافات المياه بخدر لذيذ وهي تعلك ما اختزنته في جوفها من كمّيات الحشيش والبردي وتنظر إلى الغريب بعين المستريب تحدثنا بأن تاريخ المنطقة بدأ منذ عصر السومريين الذين يعتقد أنهم جلبوا أسلاف هذه الجواميس العراقية الجنسية الآن من بلاد السند في الألف الثالثة قبل الميلاد وبقيت رغم مرور القرون الحافلة بنزاعات الشعوب الأخرى على هذه المنطقة من بابليين وأكديين وآشوريين وميديين وفرس وغيرهم حتى جاء العرب بالإسلام فأسلم أهل المنطقة وبقيت تلك الجواميس على حالها كما كانت آنذاك بأجسامها الضخمة ذات اللون الأسود جاثمة عند عتبات بيوت المعدان المستديرة وغالباً إلى جانب بيوت الفلاحين أيضاً.

ونختصر مسيرة التاريخ الطويلة التي تبعدنا عن موضوعنا فنقول إن أهل الأهوار دانوا بالمذهب الشيعي بعد حادثتين تاريخيتين مهمتين حدثنا بالتتابع الأولى حادثة استشهاد الإمام علي عليه السلام خلال الصراع الحربي بينه وبين معاوية والي الشام من قبل عمر وكان استشهاده سنة ٤٠هـ فتأسست مدينة النجف كمدفن له فصارت محجّة للشيعة. والحادثة الثانية استشهاد أبنه الحسين سنة ٦١هـ فتأسست مدينة كربلاء مدفناً له وأصبحت محجّة ثانية للشيعة أيضاً. وقد أثرت هاتان المدينتان اللتان برزتا كرمز لمظلومية آل البيت حسب عقائد الناس الساكنين وسط وجنوب العراق فدان غالبيتهم بمذهب آل البيت واعتبروا أنفسهم أنصاراً لهم عن طريق اعتناق المذهب الشيعي وامتد هذا المذهب إلى الأهوار العراقية والفارسية فاعتنقه أهلها وغالبيتهم عرب وصار الرجل المنتسب إلى آل البيت إذا سكن عندهم صار زعيماً روحياً لهم يأمر وينهى ويطيعه الكل حتى شيخ القبيلة يقوم له إذا دخل المضيف ثم يقبل يده.

* * *

٢٢

طبيعة النساء في الأهوار

وعلى هذا كيف يمكننا أن نجد ختان النساء في هذا المحيط الشيعي الذي ينبذ الختان ويحرمه استناداً إلى أحاديث آل البيت التي مررنا بها. وعلى هذا يكون تقرير منظمة (وادي) عن وجود هذه الطقوسية بين عرب الهور غير صحيح ويحتاج إلى الاستدراك.

لقد ولج المنطقة كثير من الرحالة والمستشرقين ودرسوا أحوال أهلها وطبائعهم ومعتقداتهم فلم نجد أحداً منهم ذكر شيئاً من هذا القبيل.

وقد وصف بعضهم نساء الهور أدقّ وصف. والمعروف عن المستشرقين أنهم تُصبيهم الأمور الغريبة التي يلاقونها في المنطقة ولا شك أن ختان النساء أغرب شيء عندهم لو كان موجوداً فلا يهملوه ولكنهم لم يجدوه.

قال القائد العسكري جورج كبيل عندما عبر دجلة عام ١٨٢٤:

أن نساء الأهوار جميلات بشكل مدهش وقد وصف (كبيل) بعض تفاصيلهن فهن يرتدين ملابس فضفاضة ويضعن الحلي الفضية والخزامات ويضفرن شعرهن على شكل جدائل طويلة ترصّع بالفضة وكن على الأغلب يشمن الوجه واليدين والرجلين والكواحل برسوم تشبه رسوم التطريز في الجوارب. وبعضهن يصطحبن جيشاً من الأطفال ويلاحقن الزوارق لبيع الحليب والزبدة والبيض وقد جئن إلى مركبنا ببراءة جليّة، يبدو على سلوكهن الكثير من التحرّر وبهن ملامح رقيقة واستدارة شفاه طبيعية رائعة الجمال لا تدانيها محاولات التجميل الحديثة، وكتب فريزر عنهن مندهشاً (مشرقات وجميلات) كانت تلك في الحقيقة وجهة نظر جميع من رءاهن. (٤٥)

أما (جون جاكسون) فقد جلس في العام (١٧٩٧) أمام امرأة من سكان الهور وهي تخبز الخبز بتنورها الصغير عدّة ساعات من ابتداء عجنها الطحين حتى خروج الأرغفة وتعجّب ببراعة النساء هناك فقال أنهن يخبزن ثلاثة أو أربعة أرغفة في الوقت

نفسه وهذه الطريقة لا تحتاج إلى نصف الوقود المستعمل في أوربا. (٤٦)

أما السيدة (هيدجكوك) فقد قالت (آه.. كم أحبهم، كلانا في الحقيقة أنا وزوجي) وكانت قد زارت منطقة الأهوار مع زوجها سنة ١٩٢١ وكتبا كتابهما المشترك (الحاج راكان) الذي يحكي عن تجربة زوجها مع قبائل الأهوار الشرقية وجاء فيه: هنا.. وسط الأوبئة والأوحال من السهل أن يسود الموت، ومع ذلك فالحياة هي المنتصرة. (٤٧)

* * *

٢٣

تعامل نساء الأهوار مع الغرباء

لقد كتب الغرباء كتباً جليلة ومدهشة عن هذا المجتمع وأسراره ودقائق حياة أهله يجهلها أبناء الوطن. وقد استطاع هؤلاء بلباقتهم وعلمية طرق بحثهم الأنثروبولوجية أن يلجوا البيوت على أهلها ويختلوا بقدس أقداسهم ويتحدثوا إليهن عن أسرارهن فيكشفنها لهم دون تحفظ فقد كان الشرف رقيباً عليهم.

هذا (كافن يونغ) موظف شركة الشحن الأنكليزي يكتب عن زوجة صديقه (عجرم بن حسين) قائلاً:

(شاركته زوجته السراء والضراء مثل غيرها من نساء الأهوار فهن في العادة يعشن بعزلة عن الرجال، لكن حياتهن في الوقت نفسه متحررة بشكل مُلفت للنظر، ففي حجرة الضيوف تبقى النساء في طرفٍ يفصله حاجز من الحصران. ولا يدخلن طرف

الرجال إلا لتقديم الطعام أو أثناء معالجة طفل مريض يمكنهم بالطبع التحرك داخل البيت كما يبغين فهو بيتهن كما هو بيت أزواجهن.

من المؤكد أنهن لسن الخادمات المسحوقات المحتقرات المهملات المستغلات كما يتخيلهن باعتقادي بعض الأوربيين أنهن يشتغلن، أجل، لكن الرجال يشتغلون كذلك. فالعمل قدر كل سكان المنطقة، فتراهن ذاهبات بالمشاحيف إلى السوق أو جالسات على الدكّة أمام البيوت يتسامرن بسعادة ويتبادلن المزاح والضحك مع الرجال العابرين.

(أم وريّد) زوجة (صحيّن) وابنها الكبير (وريّد) يتحدّثان معي دون تحفظ حديث أي أم لندنيّة. وحين يخلو المكان من الغرباء تأتي للجلوس معنا للدردشة والمزاح. وجهها رقيق ومعبّر بشكل غريب، لم يعد جميلاً وأنا أكتب الآن (أتذكر جمالها لسنين حين أشار إليها أخو زوجها (حفاظ) بلكزة فخورة من مرفقه) لكن وجهها ينمُّ عن قوة، بفمٍ مكتنز وعينين صافيتين صادقتين لا سيما في حضور زوجها (صحيّن) فذلك جزء من التقاليد، مع أني أعتقد أنه نابع من حبٍّ واحترامٍ حقيقيين، فهي راضية بدوره القيادي في البيت ومن الصّعب تصور غير ذلك. وهو بدوره يمنحها حقّ إبداء الرأي الذي تمارسه بجدٍ وتبدي

دائماً أراءً سليمة وتوبّخ عادة رجال العشيرة من ذوي الآراء السخيفة والفظّة وتقطع حديثهم بالقول (يا لله صار العشا).

أحياناً أذهب للجلوس معها وهي تعجن العجين مع بناتها أو تنتف الريش قرب الباب الخلفي للمنزل ونتحدّث عن مستقبل وريّد، عن الأماكن التي رأيتها أو على طريقة طبخ طائر (الغاق) أو مالك الحزين (يجب سلقه مدة ٤٨ ساعة) وهي تدرك أن لا علاقة لي بذلك.

عندما يصحبني أحدهم في المشي في القرية، أشعر كأنني أتمشى متمهلاً في شوارع قرية انكليزية. النساء خارج البيوت يعالجن البردي لصناعة الحصران، يطحنّ القهوة، يغسلنّ الأطفال، يزجرن الكلاب عن مستودع الطعام، يوجهنّ الأطفال الذاهبين إلى الهور، فترنّ أصواتهن على صفحة الماء الفسيح.

يسعى الرجال للاستماع لنصيحة المسنّات وينصتون لهن باحترام شديد ويعملون غالباً وفق مشورتهن. أن النساء هنا لا يحضرن الطعام ويخلّفن الورثة والمقاتلين والشغيلة فحسب، إنهن القوة الخفية في مجتمع الأهوار. (٤٨)

* * *

٢٤

الحياة الجنسية بين مراهقي الأهوار

ثم يسجل (يونغ) تقاليد أهل المنطقة حرفاً بحرف دون أن يدع شيئاً حتى حياتهم الجنسية الخفية فيقول:

منذ السنة السادسة من العمر يؤتمن الأولاد والبنات على قيادة المشاحيف بأنفسهم والانطلاق في الهور مثل الكبار لرعي الجواميس كي لا تتيه بعيداً. أو لقطع البردي، يغنّون تحت القصب وهناك يمارسون حين يكبرون أولى تجاربهم الجنسية الأكيدة. فالحياة الجنسية لشباب قرى الأهوار هذه لا تختلف عن حياة غيرهم، فهي تبدأ مع ممارسة العادة السريّة ثم تستمر بلعبة الغُميضة وسط البردي بسريّة تامة بسبب الضريبة العشائرية الرهيبة إذا زاد الأمر عن حدّه لتتوّج بالزواج المبكر غالباً في سن الثامنة عشرة للفتيات. ما عدا ذلك ففي المناسبات يمارس

الرقص، فيرتدي الراقص ثياب امرأة ولكن لا يوجد شذوذ صريح.

أقول: ويبدو أن يونغ يشير بذلك إلى فئة المخنثين الذين يعيشون بين سكان الأهوار ممتهنين الرقص بعد أن يغيروا شكل جسمهم الرجولي باتخاذ شكل المرأة. وعلى هذا الكشف الصريح لو كان ثمة حالة رآها يونغ من حالات الختان النسائية لما تردّد عن ذكرها. لقد وصف وذكر كل مستور وخفي حتى المخانيث الذين يكثرون في الهور ويطلق عليهم أهل الهور اسم (الذكر بأنثى).



٢٥

ظاهرة الذّكرُ بأنثى

يطلق أهل الهور اسم (الذكر بـأنثى) علـى هـؤلاء المخنثين والذكر بأنثى هو ولد محترف للرقص يأتي بأفعال النساء ويوجد منهم اثنان أو ثلاثة في المجـرّ الكبير يدفع للواحـد مبلغ مقابـل الرقص في الأعراس والمناسبات السـارة الأخـرى. ويبـدو أنهـم محتقرون، فعنـدما سـأل (ثيسـيغر) صـديقه (جحـيّش) إن كـانوا يسـكنون بـين العشـائر أجـاب جحـيّش: لا لا، طبعـاً الكثيـر مـن أولادنا يرقصون ولكنهم ليسوا (ذكر بأنثى) أضاف أحـد رفاقـه: أن أبنه (مازن) في طريقه لأن يصبح راقصاً بارعـاً، والله أنـه فـي بدايته أحسن من أبيه الذي سبقه. (٦٢)

ويبـدو مـن خـلال هـذا الحـديث أنهـم لـم يعرفـوا لفظـة (المخنّث) ليستعملوها في قاموسهم اللغوي حيث أنها جاءت من الخنَث وهو الشخص الذي لا يخلص لذكر ولا أنثى حسبما جاء فـي اللسـان وهـذا التعريـف يقابلـه فـي الانكليزيـة كلمـة (Shemale). قال النووي:

(المخنثون حزبان أحدهما من يكون خلقة لله لا يتكلّفُهُ ولا صنع له فيه، فهذا لا أثم عليه ولا ذم ولا عيب إذ لا فعل له به. والثاني من يتكلّف ذلك فليس ذلك بخلقة فيه فهذا هو المذموم الآثم الذي جاءت الأحاديث بلعنه.

وقال الجزيري: المخنث هو الذي يشبه في كلامه النساء تكسُّراً وتعطّفاً أو الذي يتشبه بالنساء في ثيابهن وزينتهن وترك الشعور وإرخاء السّوالف ولِبس حلي النساء أو بعض ثيابهن وترقيق أصواتهم وغير ذلك.

وقال الطريحي: المخنث هو الذي يوطأ في دبره لما منه من الانخناث والتكسّر والتثني. (٥٠)

والظاهر أن مخنثي الهور لا يفعلون الفعل الأخير حسب ما قال عنهم (يونغ): ولكن لا يوجد شذوذ صريح. (٥١) وقوله يحتمل أن يكون الشذوذ مخفياً.

والمخنثون لهم تاريخ عريق قديم حافل بالأسماء الشهيرة الحاذقة بالفن المجوني المتميز بالرقص الخليع والغناء إلا أن عموم الناس يحيطونهم بالذم والاحتقار رغم حاجتهم إليهم عند إقامة الأفراح ويطلق على الواحد منهم اسم (شَعَّار) بفتح الشين وتشديد العين وفتحها. وقد انقرضوا الآن.

* * *

٢٦

جلجامش يبعث في الأهوار بصورة انكليزي

إنــه (ولفريــد ثيســيغر) المســتعرب الانكليــزي المشــهور (١٩١٠ ـ ٢٠٠٣) صديق أهل الهور الوفي الذي رأى كـل شـيء وكتب عنهم كل شيء ولو كان الشيء الذي يدور بحثنا حولـه موجوداً لديهم لما ترك ذكره. فهو أشبه بجلجـامش الـذي رأى كـل شـيء وكتـب كـل شـيء فـي ملحمتـه الخالـدة (ملحمـة جلجامش).

أمـا ملحمـة (ثيسـيغر) فهـي (The Marsh Arabs) وقـد ترجمها الدكتور سـلمان عبـد الواحـد كيـوش إلـى العربيـة فـي كتـاب أسـماه (عـرب الهـور) وطبعـه سـنة (٢٠٠٢) وعلـق عليـه تعليقات توضيحية مفيدة يمكننا أن نعتبرها كتابـاً إيضـاحيّاً علـى هامش الكتاب المذكور وقد تـرك المتـرجم بصـمته علـى كـل فصل من فصول الكتاب بمقطوعـة شـعرية منثـورة تهـيج شـوق القـارئ نحـو قـراءة الفصـل كهـذه المقطوعـة التـي يسـتهل بهـا الكتاب:

في ليلةٍ
قبل القصب
قبل رسُوّ المشحوف
تسَلَّلت ذكورة الأنهار
وضاجعت .. بشهادة القمر
فأولدته الأزَل.

لقد دخل ولفريد ثيسيغر العراق أول مرة في شهر مايس عام ١٩٤٨ ليزور الشمال العراقي ومن ثم بغداد في الشهر نفسه ومنها إلى بريطانيا ثم عاد زيارة الشمال العراقي في حزيران ١٩٥٠ وانحدر باتجاه الجنوب فوصل الأهوار في شهر تشرين الأول عام ١٩٥٠ لتستمَّر إقامته فيها إلى حزيران عام ١٩٥٨ تخللتها زيارات متقطعة لمدة قصيرة إلى أفغانستان وبعض البلدان الآسيوية ومعظم الأقطار العربية إلا أن إقامته في العراق أخذت حصة الأسد وكتب عنها الكتاب المذكور الذي قلنا أنه ذكر فيه كل شيء بالإضافة إلى كتب جليلة أخرى عن سفراته.

* * *

٢٧

الانكليزي يُطَهّر رجال الأهوار

قال ثيسيغر:

إنّ مضيّفيَّ لطفاء دَمثون ولكنّهم حريصون على التخلص مني على اعتبار أنني نجس.

يحترم الشيعة شعائر الطهارة كواجب ديني، والمتزمّت منهم لن يشرب في الإناء نفسه الذي شرب منه كافر. ومادام هؤلاء الناس غير صارمين وفيهم ليونة في عاداتهم الدينية الأخرى يأتي تزمّتهم هنا بشكله الاستثنائي أمراً مختلفاً ومتعمداً بعض الشيء.

لقد تساءلتُ بوصفي نصرانياً وأوربياً هل بإمكاني تكوين علاقة طيبة معهم، الأمر الذي أتوق إليه حتى صادف حلولي في (ربعة) في إحدى القرى الكبيرة في منطقة (عميرة) في طريقي إلى الشمال حيث (الفرطوس).

كان صاحب الربعة غائباً عن البيت فاستقبلنا شاب حسن الطلعة. عاد الرجال الذين أوصلوني إلى هنا إلى قراهم ما إن شربوا الشاي. عاد مضيفي واسمه (عبد) التي تعني اختصاراً (عبد الله) عند المساء.

- ما الذي تحويه هذه الصناديق؟
- أدوية
- هل أنت طبيب؟
- عندي دراية بالدواء
- هل تستطيع الختن؟

لم يسبق إجراء تلك العملية لكني كثيراً ما راقبت إجراءَها في المستشفيات وبين أهالي العشائر، لذا سنحت لي الفرصة أن أجيب:

- نعم
- هل تستطيع ختن ولدي (خريبط)؟ لقد مضت سنين على مجيء آخر ختّان وأريد لأبني أن يختن ليتسنى له الزواج.

أشار إلى الشاب الذي سبق له استقبالنا، المشغول الآن بإعداد القهوة. أدركتُ الموقف بسرعة فوافقت على إجراء العملية في الصباح.

الختن، وعلى الرغم من عدم ذكره في (القرآن الكريم) يعدُّ أمراً إجبارياً لمسلمين متبعين سنة النبيﷺ الذي ختن بالاستناد إلى عادة العرب. لا يحق لغير المختون أن يحج بيت الله الحرام في (مكة المكرمة).

تؤجِّل العشائر العراقية في جنوب العراق سواء كانت من المعدان أو الرعاة إجراء العملية حتى سنّ بداية الرجولة كما هو الحال في حالة هذا الشاب ونادراً ما تجرى قبل سن الحُلُم[١].

إنها تجرى من قبل مختصين يجوبون القرى متنقلين من قرية إلى قرية أخرى في فصل الصيف[٢].

---

١) يعتبر علماء الأنثروبولوجي أن الختان نوع من أنواع التأهيل للوصول إلى المرحلة التالية من الحياة ومن بين معظم قبائل الصيد يتبع هذا الطقس الذي يطلق عليه اسم (التلقين) يتبع فوراً بالزواج وهو ما نراه جارياً في مجتمع الهور وهو مجتمع صيد ورعي. (ح.ع.ج) (أنظر/ اسخيلوس وأثينا / دراسة في الأصول الاجتماعية للدراما/ جورج تومسون/ ترجمة صالح جواد الكاظم/ ١٣٢).

٢) يسمونهم (مطهرجية) مفردها (مطهرچي) / المترجم (راجع / فقرة طهور أمين المميّز البغدادي) والختان يجرى عادة في فصل الربيع.

وعادة ما يكون أجرهم (ديكاً) وغالباً ما يزيدون ذلك إلى ربع دينار. كانت نتائج أعمالهم التي تسنّى لي رؤيتها مروّعة فهم يستخدمون شفرات حلاقة قذرة وقطعاً من خيوط ولا يستعملون المضادات الحيويّة. وبعد الانتهاء من العملية ينثرون الجروح بمسحوق خاص مُعَدّ من (القُلَف) المجففة لضحايا سبق لهم إجراء هذه العمليات[١]. ومن ثم يربطون الجروح بقوة بخرق. يكتسب الناس الذين يعيشون تحت ظروف كهذه مناعة ضد التلوث لكنهم لا يستطيعون مقاومة مثل هذه الإجراءات، فتمتد مدة شفاء المختونين إلى شهرين يعانون خلالها آلاماً مبرحة.

جاءني رجل يطلب علاجاً بعد عشرة أيام من ختانه وعلى الرغم من كوني متمرساً تماماً للمناظر غير السارّة والروائح الكريهة بيد أن العفونة أجبرتني على التقيؤ، فقد كان (عضوه) وكيس الصفن وما بين فخذيه كلها متقيحة. وقد انسلخ الجلد عنها وكان الصديد يقطر إلى أسفل رجليه. عالجته أخيراً بالمضادات. وعلى الرغم من العار الاجتماعي الذي يلحقه عدم

---

١) وفي مصر يجرى التقليد بأن تلف القطعة التي فصلت عن الولد في منديل ويوضع عليها ملح حتى لا تتعفّن ويربط المنديل في عنق الولد على شكل عقد حتى إذا شفي من هذه العملية رماها في النيل أو في الخليج. (عن/ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/ أحمد أمين/ ١٨٩).

التختن إلا أن بعض الأولاد يرفضون إجراءه. وفي حالات أخرى لا يسمح الآباء لأبنائهم بإجراء العملية بسبب عدم وجود من ينوب عنهم لرعاية الجاموس. ويؤكد بعضهم الآخر على أنهم ختنوا من قبل الملائكة عند ولادتهم، المعتقد الموجود في مصر أيضاً.

زرتُ مؤخراً قرى (السواعد) و (الكولية) على وجه الخُصُوص حيث سمعت أنه من النادر أن نجد من هو مختوناً الأمر الذي يبدو صعب التصديق بين المسلمين.

في الصباح اقترح عليّ (عبد) إجراء العملية في الخارج لكي لا تتلوث الغرفة بالدماء. انتظر حشد صغير من الناس موزعين بين الجاموس في المنصّة التي تتقدّم البيت والتي لا تعدّ مثالية لإجراء العمليات، وحضر عدد من أقران (خريبط) لمؤازرته في محنته كما افترضت. اخترت صبياً عليه إمارات الذكاء ليكون مساعداً لي. أحضر خريبط (جاون) قلبه وجلس عليه.

طمحت في عملية أولى نموذجية ومن خلال المعاينة رأيت أن لخريبط قلفة متصلة. هيأت الحقنة لغرض التخدير الموضعي لكن خريبط قال في الحال:

- لم هذا؟

فأوضحت له أن من شأن هذه الحقنة إيقاف أي أحساس بالألم.

- لا ، لا أريد أي حقنة . . فقط اقطع[1]

لا شيء يمكن قوله لتغيير رأيه. تساءلت بعدها: هل يعاني من التوتر كما أعاني على الرغم منه فإنه لم يبد أي دليل عليه؟ في الوقت الذي كنت أجري العملية وقد أخذ مني وقتاً جلس (خريبط) ساكناً تماماً. وبعد أن انتهيت قال شكراً ثم انتصب واقفاً. ألقى مساعدي الكلابات التي كان يحملها على الأرض، دفع فتى جانباً وجلس على (الجاون) وقال:

- الآن جاء دوري.

---

١) هذه الطقوس القاسية من قطع أجزاء من الجسم تعتبر لدى الأقوام الرعوية وعشائر الصيد بمثابة امتحان للقوة أو اختبار على الاحتمال الذي يعني الفشل فيه التجريد من الأهلية أو العار. وهذا الرجل أمام امتحان من هذا النوع أمام خطيبته فإذا أبدى أيّة علامة على الجزع والفزع اعتبر ناقِصَ الرجولة لدى خطيبته وعاراً على أهله (ح.ع. ج) (أنظر اسخيلوس وأثنا/ المصدر السابق) وفي بعض القبائل في أواسط بلاد العرب يكون ختان الشباب على نحو خطر مؤلم عند تأهيلهم للزواج في حين تقف العروس أمام عريسها أثناء إجراء العملية فإذا تأوّه عُدَّ بذلك سبباً لفسخ عقد النكاح (دائرة المعارف الإسلامية/ الرحلة الحجازية ص ٢١٣)

أدركت مصعوقاً أن أقران خريبط التسعة قد حضروا ليختتنوا، كان أصغرهم بعمر الخامسة عشرة بينما كان أكبرهم في الرابعة والعشرين. علمت فيما بعد أنهم شُفوا تماماً بعد بضعة أيام. من الواضح أن مسحوق السلفوناميد والبنسلين أكثر فعالية من مسحوق القلف. و حملت الأنباء بمرور الوقت إلى القرية المجاورة وحين ذهبت إلى هناك وجدتُ عدداً لا حصر له من الأولاد بانتظاري.

وفي أحد الأيام المضنية أصطف مائة وخمسة وعشرون ولداً وكنت في عمل شاق جداً من الفجر حتى منتصف الليل. إنهم مقتنعون أن رائحة تحميص الخبز أو أي رائحة تلهب جروح المختون لذا تجد عادتهم سدّ مناخرهم بقطع قماش وتعليق رؤوس البصل حول أعناقهم[١] وعليهم ألا يأكلوا السمك واللبن الخاثر و(الرگي) وعلى ألا يشربوا سوى رشفات من الماء حتى يشفوا. (٥٣)

---

١) يعلق المصريون رؤوس البصل على أبواب البيوت وعلى السرير وعلى الغرف اعتقاداً بأن الأرواح الشريرة إذا حضرت وشمت البصل ذهبت ولم تعد. وفي زمن الأوبئة يكثرون من أكل البصل وشمه ويعتقدون أن الإنسان إذا دخل بلداً جديداً كان أول ما يأكل البصل. والتقاليد نفسها يتعهدها العراقيون كذلك إرثاً من وصايا علاجيه قديمه. (أنظر/ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/ أحمد أمين/ ٨٨)

أقول: لو كان ختان البنات جارياً بين نساء الأهوار لعلم به ثيسيغر بحكم كونه متطبباً يشفي الالتهابات التي يخلفها الختانون الشعبيون بوسائلهم البدائية القذرة ومن الطبيعي أن يتلوث مكان ختان البنت كذلك عندما تجريه الخاتنة بنفس الوسائل فيلتهب فيلجأ إليه لمعالجتهن ولكن ذلك لم يحصل له ولو حصل لذكره بالتأكيد.

* * *

٢٨

المثل (طهّر أبنك بفاس) ينفي تطهير البنات في العراق

يُعَرَّف المثل بصورة عامة بأنه قول يُعبّر عن حقيقة مألوفة صيغت بإسلوب مختصر سهل لكي يُتوصّل عن طريقه إلى غرض تعليمي أو إرشادي. (٥٤)

والأمثال بين الأُمم كثيرة ولها أبواب إرشادية عديدة نسوق لك منها هذا المثل المتداول بين عامة العراقيين هو قولهم:

طهّر أبنك بفاس، ولا تحتاج الناس

وهو يضرب لإرشاد الشخص إلى الاعتماد على نفسه في أموره، وصرفه عن الاتكال على مساعدة غيره كأن يطلب منهم أن يعينوه على ختان ابنه الذي يتطلب أموالاً كثيرة كما أسلفنا في وصف تلك الختانات الباذخة فيمكن لهذا الشخص بكل بساطة أن يستخدم الفاس، آلة القطع الموجودة في كل بيت

ويطهّـر بواسـطتها ابنـه وينتهـي الأمـر دون ضـجيج ولا عجـيج وصرف أموال.

وهنا يمكننا أن نتوقف متسـائلين: لمـاذا خصـص العراقيـون الأبن بالذات دون البنت؟

لماذا لم يقولوا: طهر بنتك بفاس ولا تحتاج الناس؟

الجواب: لا شك أن المثل عند ذاك سيفقد صيغته التقليديـة المألوفة فيكون ناشزاً عن العادات، ذلك لأن طهـور البنـات غيـر شائع في المجتمع العراقي عدا طهور الأبناء.

* * *

٢٩

المَثل (طهِّر بنتك بفاس) يؤكد تطهير البنات في طويريج

إلا أننا نجد صيغة أخرى لهذا المثل يقولها أهالي (طويريج) وهي:

طهّر بنتك بفاس . . ولا تحتاج الناس

وهم بهذا قد شذّوا عن كافة العراقيين بجعل البنت في المثل بديلاً عن الابن الأمر الذي يشير إلى وجود هذا التقليد بينهم وهو ختان البنات. أخبرني بذلك صديقنا الباحث حسن عبيد عيسى قائلاً: إن هذا المثل سمعته متداولاً بين أهالي المدينة منذ الطفولة وهو يدل دلالة واضحة على أن أهالي طويريج كانوا يختنون بناتهم منذ زمن بعيد وقد تركوه فلا يوجد عندهم الآن سوى أثره المتمثل بهذا المثل.

وقد حفّزني قوله لأتأكد من غيره من أهالي المنطقة فرأيت بعضهم يؤكده ولكن أكثرهم نفوا حصول الفعل عدا الدكتور حازم عبودي السعيدي الذي قال: إن هذا التقليد كان يمارس في طويريج قبل أكثر من مائة عام وقد هُجر الآن نقلاً عن إحدى المسنّات من عشيرة (البراجم). وأكد قوله الدكتور علي رحيم الحلو ولكنه قال إنه قد هجر قبل أكثر من أربعين سنة.

وقد رأيت أن أشرك معي في التنقير عن حقيقة الأمر صديقنا المهندس المعماري عبد الإله سامي (أبو يوسف) وهو من أهالي المنطقة والباحثين في التراث، فأفادني بمعلومات نقلها عنهم وهي أنهم يؤكدون على أن المثل كان بالأصل (طهّر بنتك) ولكن غالبية العراقيين حولوه إلى (طهّر أبنك) تورية عن البنت وتخلّصاً من الحرج بذكرها في هذا التقليد المخجل الذي يخص العورة فشاع بينهم القول (طهّر أبنك) إلّا أن أهالي طويريج ظلّوا متمسكين بالأصل ولم يتحرّجوا منه.

وقال الباحث المذكور: أن العملية برُمّتها هي بمثابة إخصاء للبنت لإطفاء غِلمتها واهتياجها لطلب الجنس.

وقال إن العملية كانت معروفة بين البدو والنسبة بينهم تقدر بـ(١٠٪) أما في المدينة فلا تتجاوز (٢٪) وهي نسبة ضئيلة تكاد لا تذكر ولا يقاس عليها.

ثم أردف قائلاً: إن العملية كانت تؤديها المولّدة وتسمى شعبياً باسم (الحبّوبة) وهي مولدة حرفية ونقل عن إحداهن متوفاة الآن كانت تختن البنات قبل أكثر من خمسين عاماً.

وقال: بالنسبة للبدويات كنّ لحدّ سنة ١٩٢٠ – ١٩٣٠ لا يلبسن السراويل فكان ركوبهن على قتب الجمل يسبب لهن تهيج (البظر) لاحتكاكه بالسرج فيذهبون بالمرأة إلى الحبّوبة فتختنها قاطعة بظرها لئلا تتهيج جنساً.

ثم مضى قائلاً: وكانت العشائر البدوية تأتي من منطقة النجف فتسكن طويريج الأمر الذي أدى إلى انتشار هذه العادة بنسبة قليلة بين الحضر. وقد اندثرت الآن ولذلك يستغرب العراقيون المعاصرون عندما يسمعون بوجود هذه العادة حتى أن قسماً منهم ما سمع أن البنت تختن وكل ذلك يعود إلى ندرة هذه الحالات واقتصارها بشكل ضيق بين زوايا المجتمعات القروية.

وقد أشار إلى ذلك الباحث (وسيم باسم) في تقرير مفصل بعنوان (ختان الإناث في العراق: عملية سريّة ينكرها البعض) نشره في إحدى المواقع الشبكية بتاريخ ١٧/ أبريل ٢٠١٢ وأكد وجودها ـ خلال دراسة ميدانية مثمرة – في المناطق المحافظة ومناطق الريف كقضاء المحمودية وأريافها وهي مناطق غالبيتها

من الطائفة السنيّة وأكد له الطبيب (سعيد الطريحي) وجود هذه الظاهرة في كربلاء وأشار إلى نحو عشر حالات عايشها في عام (٢٠١١) بسبب مضاعفات صحية سببها الختان مما اضطر أهالي الفتيات إلى عرضهن على الطبيب. وبحسب الطريحي تعرضت إحدى الفتيات إلى التهاب في أعضائها التناسلية مما اضطرها إلى دخول المستشفى.

أقول: ولما كانت كربلاء منذ القدم وإلى هذا اليوم مهجراً لكثير من الأقوام الشيعية، يأتون إليها للزيارة والارتزاق فإن قول الطبيب الطريحي يمكن أن يستدل منه على أن ختان البنات يمارس بشكل خفيّ بين هذه الأقوام الشيعية المذهب.

وفي منطقة (أبو صخير) وهي مدينة ريفية تقع بين النجف والحيرة يشير (ليث الجزائري) إلى إصابة فتاة بمرض نفسي بعد ختانها مرغمة من قبل أهلها ويؤكد أن بعض الحالات تعرض على المستشفى بسبب مضاعفات يسببها الختان.

ويكشف الشيخ أبو عصام الجلابي -ويسكن شمال المحمودية- عن وفاة فتاة تعرضت إلى التهاب في أعضائها التناسلية بعد شهر من ختانها. ويخمن أبو عصام عدد الفتيات اللواتي تعرّضن لهذه العملية في قريته التي تضم نحو سبعين أسرة وبيتاً إلى عشر فتيات خلال عام. ويقول: هناك امرأة

متخصصة بهذا المجال تأتي القرية وتقوم بختان الإناث بطريقة بدائية جداً. ثم يعقب الشيخ أبو عصام على ذلك بالقول: رغم أن الظاهرة موجودة لكن هناك مبالغة في انتشارها. ويحدث هذا رغم أن بعض الشيوخ لا يؤيدون هذا العمل كالشيخ قادر الگيلاني الذي يقول: إنها عادة جاهلية يرفضها الدين الإسلامي. ويتابع: يحاول البعض إيجاد مبررات شرعية لها لكن هذا الأمر بلا وجه حق. (عن التقرير المذكور).

يقول المثل الشعبي العراقي (كل زور لا يخلو من واوي) ويضرب في حالة ندرة الشيء ومع ذلك وجوده. وهذا يمكن أن يقال في مجال ختان البنات حيث يوجد مُسْتَتِراً وَجِلاً خائفاً في أزوار العراق البعيدة عن المدن فلا يراه الناس.

* * *

٣٠

عبد الشهيد الشفاثي يَفضَح عارَ أُمِّه

عبد الشهيد هذا صديق أثير لديّ من أهالي ناحية شفاثة (٦٨كم كربلاء غرباً)[1] هاجر إلى كربلاء مع والديه واستقرّ بها وقد اتخذته أخاً ومصدراً لكتاباتي، ألجأ إليه عندما أحتاج إلى معلومة عن مدينته فيفيدني بها فأدونها وأشير إليه لكونه ثقة صدوقاً وذا اطلاع واسع على أحوال المدينة الضاربة في التواريخ قدماً منذ عصر السبي البابلي زمن (نبوخذ نصر) واستقرار اليهود فيها أوائل القرن السابع قبل الميلاد.

---

١) اسمها في المصادر (شفاثا) وشعبياً (شفاثه) وتتألف من مدينة (عين التمر) القديمة تاريخياً وقد اندرست، وناحية شفاثة/ وبعضهم يسميها (شثاثة) هي واحة جميلة مساحتها ١٧٥٨كم مربعاً مليئة بالبساتين والعيون والآبار ولا يصلح ماؤها للشرب بسبب نسبة الكبريت فيه وآثار اليهود والمسيحيين الأوائل لا تزال شاخصة فيها إلى اليوم كقبر النبي اليهودي ناحوم الألقوشي وقصر شمعون المسيحي (للتفصيل أنظر/ كتاب عين التمر/ طالب علي الشرقي).

ولذلك رحت إليه سائلاً إياه عن هذه الممارسة إن كانت موجودة عندهم، فاستغرب وقال: لم أسمع بها ولم أسمع أحداً من أهالي شفاثة يتطرّق إليها، ولكن انتظر سأسأل والدتي. فاستعجلته قائلاً: إن الموضوع متوقف عليك، فمضى.

وبعد يومين طرق بابي وفتحت له فإذا هو يضحك. فقلت له ما الأمر؟

قال: جئتك بعار أمي وخالاتي وعمتي ! !

قلت: كيف؟

قال: أحدّثك . . إنني عندما سألت أمي تفاجأت أول الأمر، ولكنها انطلقت بعد ذلك وراحت تعترف أمامي وكأنّما وَجَدت في ذلك فرصة لتنفس عن سرّ كبيت في صدرها ظلّ يخزها طوال سنين وقد آن الأوان لتتخلص منه.

قالت رداً على سؤالي عن وجود ختان النساء في شفاثة: نعم!! كان هذا الشيء موجوداً في شفاثة قبل أكثر من خمسين سنة وقد شملني فأنا مختونة، خُتنت سراً بعد زواجي من أبيك بمدة طويلة لا أتذكرها ربما بعد ولادة أخيك الثالث وأبوك إلى الآن لا يعلم بذلك. وكذلك أخفيت الأمر عليك وعلى أخوتك..أنظر . . خالتك فلانة مختونة وكذلك عمتك وأزواجهن لا يعلمون بذلك لأن الختان كان يجري في الخفاء ودون ضجة

وتستطيع المرأة أن تخفيه على زوجها بالاحتجاج بإصابتها بما يصيب المرأة من الأمراض النسائية والأمور الطبيعية الأخرى.

قال عبد الشهيد: لقد أثارت أمي استغرابي لأن المتعارف عليه في ختان البنات حسب معلوماتي أن يكون في الصغر وللأبكار بخاصة أما المتزوجات فلا يجرى لهن.

وعدت أسألها وأنا خجل جداً: من قام بختانك؟

قالت: الحبّوبة[1] التي أشرفت على توليدي وقد توفيت الآن وكانت امرأة كهلة امتهنت التوليد مع ختان النساء المتزوجات.

ثم سألتها بدافع الفضول: كيف فعلت ذلك؟

قال: إنها تقوم بقصّ جزء بسيط خفيف كقشرة البصل من غلاف (العنّابة)[2] تقوم بذلك بدون تخدير أو تعقيم بواسطة

---

١) الحبّوبة: بفتح الحاء وضمّ الباء وتشديدها لفظة يطلقها الكربلائيون وغيرهم من العراقيين على القابلة المولدة. وتطلق اللفظة كذلك على أم الأم وأم الأب وينادونها بقولهم جدتي بكسر الجيم وجمعها جدات بكسر الجيم أيضاً. والجدّة كذلك: القابلة المولّدة وجمعها جِدات

٢) العنّابة: بكسِر العين وتشديد النون: لفظة شعبية تطلق على البظر. سموه بذلك لكونه يشبه ثمرة العناب ذات اللون الأحمر وهو شجر شائك يستعمل ثمره مأكولاً وعلاجاً في الطب الشعبي.

شفرة حلاقة قذرة من كثرة الاستعمال الدائم ولا تبدلها[1] ثم بعد أن تنتهي من العملية تأخذ رماداً من الموقد (الموگد) وترشّه على الجرح لينقطع النزيف وهذا هو كل ما تفعله. وفي حالة التهاب الجرح تعالجه بوضع مزيد من الرماد. أما ما يصاحب هذه العملية من ألم فلا تسل عنه وكلُّ النساء يتمسكن بالصبر ويتحملن العذاب من أجل الحصول على الغاية المرجوّة من ذلك وهي الطُّهر.

فالمرأة الغلفاء تعتبر بين صاحباتها نجسة فإذا طهّروها طهرت حسب شرع صاحباتها وليس حسب شرع الأزواج الذين يجهلون هذا الشرع. ولذلك كانت أمي وقريباتي يحثثنني طول تلك الفترة على إنهاء العملية فكنت أرفض بشدة وأخيراً مللتُ من لجاجهن وتاقت نفسي للموت فقررت أن (أذبحها على قِبلة) وأرسلت إلى الحبوبة وأنهيت العملية بسلام.

---

١) أرجو أن يعود القارئ الكريم إلى المحور السابع والعشرين حيث يجد فيه ذكراً لهذه الموسى القذرة في حديث ولفريد ثيسيغر عن الختانين الجوّالين في الأهوار. فقد قال عنهم (أنهم يستخدمون شفرات حلاقة قذرة) وقد سألت محدّثي عبد الشهيد عن سبب استخدام الحبوبة الشفائية لهذه الأمواس ولا تبدلها. قال: اقتصاداً في النفقة حيث كان العطّار يبيعها بسعرٍ عالٍ والحبوبة لا تعلم أن القذارة تولد الالتهابات فهي أمية لم تقرأ علم الميكروبات.

وقد بقي شيء في نفسي –قال عبد الشهيد– هو أن أسألها من أين جاءت هذه الشعيرة؟ فسألتها فقالت: (إنها متوارثة من جيل إلى جيل . . وقد أخبرتنا الحبوبة أن أصل العملية يعود إلى زمن فاطمة الزهراء عليها السلام فقد كانت لها خادمة اسمها (فضّة)[١] فقامت فضة بعمل سيء فأرادت فاطمة تأديبها بقطع جزء نجس من جسمها عقاباً لها على ذلك العمل فلم تر مكاناً نجساً سوى هذا الجزء الذي ينظر إليه كجزء نجس من جسد المرأة فقطعته ومنذ ذلك الزمان صار قطع ذلك الجزء من المرأة سُنّة اتبعتها النساء، هكذا قالت الحبّوبة!! وهكذا تأسطر ختان النساء بين الشفاثيات بجعله فاطمياً بعد أن كان إبراهيمياً، وقد فصلنا ذلك في (المدار التاسع) في أسطورة سارة وهاجر زوجتي النبي إبراهيم الخليل وكان إبراهيم هو الذي اقترح على سارة بقطع بظر هاجر عقاباً لها على تفردها بالولادة دونها.

---

١) فضة النوبية هي جارية السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام كانت من النساء العاقلات الصادقات جاء ذكرها في الإصابة لابن حجر/٨ /٢٨١ وجاء فيه أن رسول الله (ص) أخدم فاطمة ابنته جارية اسمها فضة النوبية وكانت تشاطرها الخدمة في العجن والخبز والاحتطاب وذلك في حديث طويل. وانظر/ البداية والنهاية/ ابن كثير /٥/٣٥١

ويتبين لنا من خلال ذلك أن الختان المتبع لدى النساء الشفاثيات هو ختان تعبدي صرف لا علاقة له بالعفة والخيانة الزوجية أو المتعة الجنسية.

* * *

٣١

الحياة الاجتماعية للمرأة الشفائية

ولا شك أن القارئ سيسأل: كيف تضافرت تلكم النساء على إخفاء ختانهن وجعلنه سراً يتداولنه بينهن ولا يعلم به الرجال ولا الأولاد؟

نقول: أن المرأة في تلك البقعة المنعزلة عن عمران الحضارة كانت تعيش تحت كابوس التقاليد العشائرية الصارمة. فهي أسيرة أوامر والدها (رب البيت) وأخوتها، لا تستطيع أن تبدي رأياً أو ترفض مشيئة حتى في زواجها تقاد إلى الرجل الذي يختاره لها أبوها أو أخوتها قسراً. وإذا أجرم أحد أخوتها جريمة قتل في عشيرة أخرى، أخذت عنوة كمادّة من مواد الفدية التي ينفق عليها الطرفان.

إن خير من درس حالة المرأة الشفائية هو الباحث طالب علي الشرقي في كتابه (عين التمر) ونحن نقتطف منه بعض الفقرات لتنكشف أمامنا تلك الوضعية الغريبة للختان النسائي الشفائي التي حدّثنا عنها الصديق عبد الشهيد الشفائي.

يقول طالب علي الشرقي:

(المرأة في شفاثا محجّبة محافظة. وبالرغم من ارتدائها العباءة والخمار والعصابة والملابس الطويلة فإنها تمنع من دخول سوق المدينة. وقد يصل الحدّ عند البعض إلى تحريم استطراقها فيه/ص١٢٩).

أقول: وهذا هو السبب الذي جعل (الحبّوبة) تستعمل الموسى القذر في الختان لأنها لا تستطيع دخول السوق وتشتري موسى جديداً كما أخبرني بذلك عبد الشهيد الشفاثي.

ثم يمضي الشرقي بالقول:

(كان التعليم محرّماً على المرأة في شفاثا وفي الآونة الأخيرة خرج البعض على هذه القاعدة فأرسلوا بناتهم إلى المدارس ومع هذا فلا يتعدى تعلمهن المرحلة الابتدائية وقد لا ينهينها حيث أن السنّ الزمني يمنع البنت من متابعة الدراسة لأن المدارس مختلطة (بنين وبنات).

إن المرأة في بيتها تقوم بأعباء البيت من طهي وتنظيف البيت والملابس وإعداد الخبز بيدها وحلب الأبقار والأغنام إن وجدت وترتيب الزريبة وإحضار علف الحيوانات وإعداد مشتقات الحليب إلى جانب تربية الأطفال. وهنا يقف المرء ليتفحص كيفية قيام الأم بهذه المهمة الشاقة، والحقيقة أن

الأغلبية الساحقة لا تعي من شروط تربية الأطفال غير الرضاعة والملبس والرعاية الفطرية بدون أي تطور أو تجديد فينشأ الطفل عليلاً ضعيفاً مضيافاً للطفيليات والجراثيم طول سني طفولته، كما أن الأب لا يجد لنفسه متسعاً من الوقت يتولّى به رعاية طفله وينقذه من واقعه المؤلم وإن وجد ذلك الوقت فهو مطبوع على اللامبالاة غالباً بخصوص ذلك. (ص١٢٩)

ثم قال:

(والمرأة من حيث عقليتها ومفاهيمها في شفاثا يغلب عليها الإيمان بالأسطورة والخرافة والدجل والسحر والأدعية والأحراز وكل تركات العهود المظلمة) (١٣٠)

أقول: وعلى هذا كيف لا تخيم شعيرة بدائية على عقل النساء الشفاثيات وتبقى متوارثة بينهن يحطنها بستائر من الظلام كعباءاتهن السود.

ولو قارنا وضعهن مع وضع نساء الأهوار المنفتح (راجع المدار الثاني والعشرين) لوجدنا البون شاسعاً بينهن كالبون بين النور والظلام. ولهذا لم نعثر على أثر لهذه الشعيرة الشيطانية بين نساء الأهوار ووجدناها بشكل خفيّ في دروب شفاثة المظلمة.

* * *

٣٢

خاتنات من سورية يختّن البنات في أطراف النجف

تشكل أطرافُ النجف الرأس الجنوبي لمثلث جيولوجي رسمته الطبيعة منذ الأزل حيث تمثل أطراف كربلاء الرأس الشرقي وأطراف شفاثة الرأس الغربي. وقد استعمرت العشائر العربية قديماً هذا المثلث وهي عشائر متواشجة فيما بينها بوشائج التزاوج رغم أنف الاختلافات المذهبية لذا تجد التشابه في التقاليد صريحاً بين فروع تلك العشائر.

وفيما يتعلق بشعيرة ختان البنات الخجولة التي وجدناها في أطراف كربلاء وأطراف شفاثة فإننا نجدها كذلك في أطراف النجف.

محدثي عن هذا الموضوع هو (م.ع.) معلم متقاعد عمره (٦٥) سنة يتحدرُ من أصل عشائري نجفي ويستقر الآن في

حي المعلمين من كربلاء وكان قبلاً يسكن في أحدى القرى الكائنة في أطراف النجف قال عن أيامه في تلك القرية أنه عندما كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر كان هذا الشيء موجوداً في قريته والقرى المتاخمة لبادية الشام. فعندما يهلُّ الربيع كانت تأتي إلى قريته والقرى المجاورة نساءٌ سوريات يمتهن ختان البنات فينتشرن في تلك القرى. وعندما سألته: لماذا في فصل الربيع بالذات؟ قال: لأن هذا الفصل بحرارته المتميّزة عن برد الشتاء يمكن فيه شفاء جرح الختان.

ثم قال: وكانت تلكم النساء من البدويات وكانت أمهات البنات يفضلنهن لختان بناتهن لمهارتهن ونظافتهن حيث يستخدمن شفرات خاصة عند القطع مرهفة الحدّ وبعد أن ينتهين من العملية يحرقن الشفرة بالنار ويلقينها في القمامة ثم يأخذن شفرة جديدة لختان جديد وكانت لديهن أدوية خاصة تشفي الجرح بسرعة.

ثم سألته عن أعمار المختونات فقال إنهنّ بالتحديد باكرات ولا يجري على المتزوجات وقال: إن هذه العادة قد انقرضت الآن لوعي النساء بأن هذه العملية ليس لها موقع ديني أو شرعي.

وعندما سألته أخيراً: هل يمكن أن تكون تلكم البدويات من بَدو عشائر (الصُّلبَة)[1] التي تنتشر في بادية الشام ويمتهنّ تطبيب بعض الأمراض. قال: إن عشائر الصُّلبة لا يعرفون الختان أصلاً وإنما هن من بدو بلاد الشام المسلمات.

* * *

[1] الصُّلبَة: عشائر سكنت بادية الشام وهم من بقايا الجيوش الصليبية التي غزت بلاد الشام. وبعد انتهاء تلك الحروب فضل بعض الصليبيين البقاء في سورية فلم يجدوا ترحيباً من الشعب السوري فتركوا المدن وسكنوا الصحراء، وهم يدينون بديانة خليط بين التقاليد الإسلامية والمسيحية لذلك هم لا يختنون ذكوراً وإناثاً وتنتشر هذه العشائر في العراق أيضاً. (راجع / عشائر العراق للعزّاوي / ص ١٨٠)

٣٣

ختان النساء في كردستان العراق

أما وقد تأكّدت لدينا نظافة الجزء العربي من العراق من هذه الظاهرة الوبائية إلا في بعض الزوايا الخفية وبنسبة لا تشكل أهمية إحصائية، فإن جزء الشمال منه المتمثل بإقليم كردستان تربع فيه العادة وتفرّخ وتمتد صعوداً إلى أطرافه الجبلية البعيدة عن مواقع الحضارة ويعود السبب في ذلك إلى الرضوخ لأوامر الأحاديث النبوية التي ذكرناها واعتقد الكثير من المسلمين بصحتها ومنهم بعض القبائل الكردية والتركمانية والعربية المتساكنة معهم.

يقول البروفيسور الكردي الدكتور إبراهيم الزلمي الأستاذ المتمرس في الشريعة والقانون: إن ختان الإناث في الوقت الحاضر لم يلتزم به إلا الشعب الكردي ولو كان شعاراً إسلامياً لطبق في سائر أنحاء العالم الإسلامي بوجه خاص المملكة

العربية السعودية التي هي مهبط الوحي ومركز شعاع الإسلام (كتابه/ ختان الإناث: أضراره وتحريمه في القرآن/ ص ٧)[١].

أما النتائج السلبية التي تخلفها هذه العملية على البنت التي ربما تنتهي بموتها أحياناً فلا تهم الوالدين، ولربما اعتقدوا بأنها ستكون عندئذ شهيدة وتدخل الجنة لأنها اتبعت تعاليم الرسول ﷺ.

وفي بعض أنحاء كردستان ينظر إلى المرأة غير المختتنة مثلما ينظر إلى الرجل غير المختتن فهو نجس كالكلب الأغرل فكذلك هي إن لم تختن تعتبر نجسة حتى تطهر بالختان. جاء هذا في أحد التقارير الواردة من كردستان حيث أشار إلى رغبة بعض الإناث أن يختنّ وهن في عمر ثمانية عشر عاماً لأسباب اجتماعية تتعلق بنبذ الزوج لهن أو المجتمع لعدم تعرضهن للختان. ففي بعض القرى من كردستان العراق يتم رفض الأكل والشرب من أيدي امرأة غير مختونة. (٥٥)

ويلاحظ أن هذا المعتقد دخيل على الإسلام ولا علاقة له بأحاديث الرسول ﷺ حيث لم يقل فيها بنجاسة المرأة غير

---

١) أقول: يبدو أن الدكتور المذكور لم يطلع على شيوع ختان البنات في مصر وفي الحبشة وفي ليبيا الذي يكاد يكون واجباً مما سنذكره في الفصول التالية.

المختتنة وعدم جواز الأكل والشرب من يدها. وإنما مردّ ذلك إلى معتقدات قديمة توارثها هؤلاء القوم ومن أجداد لهم قبل الإسلام فلما أسلموا عزّ عليهم نبذها اعتزازاً بها لكونها أرث الأجداد فلقموها بأحاديث نبي الإسلام زوراً. فعلى هذا يصعب اجتثاثها من عقولهم لكونها تثبتت بجذرين مقدسين.

وكشفت دراسة قديمة أجرتها منظمات أجنبية في ١٩٠ قرية ومدينة في شمال العراق أن نسبة تتراوح بين ٧٠ – ٩٥٪ من النساء تعرضن للختان. ورغم أن الظاهرة تغذيها معتقدات اجتماعية إلا أنها تمارس في السرّ. وتقول امرأة تمتهن الختان هناك أن ختان الطفلة متوقف على نموّها الجسدي، فقد يحدث ذلك في سن الثالثة أو الرابعة ولكن لا يظهر قبل السن السابعة لدى الأخريات.

وعندما نضع هذا التقرير مع التقرير السابق الذي أشار إلى ختان المرأة في سن الثمانية عشر عاماً يتبين لنا أن الفتاة في كردستان تكون عرضة للختان منذ نعومة أظفارها حتى مرحلة تأهيلها للزواج، إذ يتم ختانها قبله مما يثبت أنها يجري عليها التأهيل بقطع غرلتها مثلما يحدث في تأهيل الفتى بقطع غرلته قبل الزواج الأمر الذي يجعل الحديث (إذا التقى الختانان وجب الغسل) قيد الفعل.

وفي هذا المجال بقول إمام وخطيب جامع رشيد المفتي في أربيل (عمر ملا حسن): أن الختان كان موجوداً أيام النبي محمد إلّا أنه لم يأمر باستمراره أو يمنعه. وسرعان ما يستدرك قائلاً:

إن ختان النساء ليس واجباً في الشريعة الإسلامية ولا يوجد نصٌّ قرآني أو حديث نبوي، إنما المسألة متروكة للعرف، فإذا رأى الناس أن هذا الأمر جيد يفعلونه، وإذا اعتبروه مضراً فلا يفعلونه)(٥١)

ورأي الشيخ هذا رأيٌ حصيف، فالمسألة لا تتعلّق بالدين وإنما تتعلق بالتقاليد الشعبية المتوارثة عن الأسلاف عن طريق التجربة. ولذلك عزا ناشط في منظمة تهتم بحقوق الإنسان والأسرة هذه الظاهرة إلى أسباب دينية من جهةٍ وإلى التقاليد المتوارث في المجتمع من جهة أخرى ومعنى هذا أن الظاهرة لها شقان أحدهما ديني والآخر تراثي الأمر الذي يجعلهما أكثر رسوخاً في العقول وليس من السهولة اجتثاثها.

وذكر منسق مشاريع منظمة (وادي) إحدى كبرى الجهات المهتمة بموضوع ختان الإناث المحامي فلاح مراد لِـ(أنباء موسكو) أن إخفاء هذه الظاهرة وعدم علانيتها هي جزءٌ من عادات المجتمع وأدى ذلك إلى استمرارها وأضاف: أن هناك بعض الفتاوى الدينية التي صدرت قبل (٣٠٠) عام تشير إلى أن

السنّة في ختان الإناث إخفاؤها بينما السنّة في ختان الذكور إظهارها. (٥٧)

أقول: ألا يمكن أن يكون أمر النبي بإخفاء الاحتفال بختان البنت دليلاً على وجوب تركه لأنه عيب يستحى منه؟ ولكن العقلية الزمّيتة المتحجرة تشبثت به. ومع هذا فقد أظهرت التقارير أن العملية في تناقص مستمر فأكدت القانونية (شوخان حمه رشيد) أن كثيراً من النساء اشتكين من هذه الظاهرة وطلبن المساعدة والاستشارات القانونية حيث تسجل بالمعدل من حالتين إلى أربع حالات يومياً بعضها وصل إلى مرحلة الترفع للمحاكمة وطلب الطلاق. وتطرقت إلى حدوث المشكلات الزوجية بسبب إصرار الأزواج على ختان بناتهم وبينت في الوقت نفسه أن هناك زيادة في الاعتقاد لدى المجتمع بخطورة هذه الظاهرة. (٥٨)

* * *

٣٤

مأساة طفلة أربيلية

تقول السيدة (شيرين آميدي) رئيسة اتحاد كوردستان ومسؤولة الشبكة القانونية لنساء الإقليم أنها صدمت حين اتصلت بها الدكتورة (؟) أواخر العام ٢٠٠٦ وطلبت منها الحضور على جناح السرعة إلى عيادتها لتكون شاهدة على المضاعفات القاسية التي حصلت لطفلة في الرابعة من عمرها جراء عملية ختان. وتضيف (آميدي) إنها فوجئت في العيادة بوجود امرأة تحتضن طفلتها الفاقدة للوعي بسبب احتقان البول أثر إجراء عملية الختان.

وتضيف: أن الدكتورة قالت لي: هذه الظاهرة تتكرر بشكل ملحوظ وطلبت مني كقانونية وكمسؤولة للشبكة القانونية أن نبذل جهوداً مكثفة للحدّ من انتشار هذه الظاهرة وأضافت آميدي أن وزارة شؤون المرأة تنشط في هذا المجال رغم محدودية إمكانياتها. (المصدر السابق)

أما ختان البنات في دهوك فغير موجود باستثناء انتشارها بين بعض العوائل والأسر الوافدة إلى المدينة من مناطق أخرى.

أما الإيزيدية فيقول (خيري شنكالي) مدير أوقاف شؤون الإيزيدية في إقليم كوردستان أن الإيزيدية كانوا يختنون النساء فيما مضى فإنها غير موجودة الآن.

أما السليمانية فتقول (بخشان زنكنة) عضوة برلمان إقليم كوردستان أن عملية ختان البنات موجودة في الأحياء الشعبية في السليمانية ولا سيما بين الأسر الفقيرة والوافدة إلى المدينة من مناطق أخرى وأضافت أن هذه الظاهرة منتشرة في حي (قالاوه) بالتحديد وفي ناحية (تكيه كاكا) القريبة من چمچمال.

وتقول إحدى النساء: هناك اعتقاد راسخ بأن المرأة لا يحق لها أداء فريضة الحج إذا كانت غير مختونة ولهذا فهناك عمليات ختان تجرى لعجائز من أجل أن يكن مؤهلات لأداء فريضة الحج. (التقرير السابق)

* * *

٣٥

داعش تكشف نظافة الموصليات من الختان

١- حديث ذو شجون:

ما زلت أتذكر يوماً لا ينسى من أيام الدراسة في دار المعلمين العالية سنة ١٩٥٨، وقد اعتدنا ـ نحن ثلّةً منسجمة من الطلبة من مختلف مدن العراق ـ أن نجتمع بعد انتهاء الدروس في نادي الكلية ونستمتع بتناول الشاي والقهوة وتجاذب أطراف الأحاديث، وهي أحاديث شيقة ذوات شجون وشؤون تنساق إلى مجالات شتى منها ما يتعلق بالدروس والأساتيذ ومنها ما يخص الأوضاع السياسية التي كان العراق يغتلي بها ومنها أيضاً ما يجري في موطن الطالب من تقاليد ومراسيم وعادات وغير

ذلك. وهذا في الواقع هو ديدن الحياة الجامعية الممتعة التي تبقى مرسومةً في الذاكرة كرسم الوشم الذي لا تمحوه الأيام.

وأتذكر في ذلك اليوم المزبور ـ وكان يوماً شتائياً جميلاً ـ أن الحديث امتد بشكل عفوي إلى ذكر العادات المجتمعية المرفوضة والسائدة في بعض البلاد العربية وكان ختان البنات بينها. فقال بعض حضور الجلسة من أهل الوسط والجنوب إنه غير معروف في مجتمعاتهم وكان قسم من الحاضرين موصليين فنفوه أيضاً. قال ذلك حازم وعلي وأحمد الجبوري وأيدتهم الزميلة رمزية وهي موصلية عريقة، قالت: لا نعرفه ولا يمارس عندنا، ثم انتهت الجلسة على هذه الصورة.

ومرت الأيام وتخرجنا ومضى كلٌّ منا إلى حال سبيله ونسيت الموضوع إلا أنه عاد إلى ذاكرتي يوم احتلال داعش للموصل في ٢٠١٤/٦/١٠.

* * *

لست أعلم إن كان أولئك الموصليون أعضاء جلسة النادي المذكورة أحياءاً يرزقون في الدنيا أم أمواتاً يرزقون في الآخرة. لقد مر أكثر من نصف قرن بين انعقادها في ذلك التاريخ وبين احتلال داعش للموصل في التاريخ الذي ذكرناه.

إنني أتمنى أن يكونوا أمواتاً حتى لا يشهدوا بأم أعينهم كارثة العار التي حلت بأهليهم عندما هرب الرجال أمام جحافل شذاذ آفاق من كل سافلٍ منبوذ (زاعه) بلده ليتخلص منه فجاء إلى العراق ليحكمه ويتسرّى نساءه.

لقد بقيت النساء بلا رجال يطلقن صرخة النجدة التاريخية المعهودة (وا معتصماه) ولكن تلك الصرخة لم تلمس نخوة المعتصم، لأن المعتصم نفسه هرب مع الهاربين بعد أن خلع تاجه وبزّته الرسمية وألقاها على الأرض وطفق يجري مرتعباً بـ (طرگ الفانيله واللباس) نحو الكرد الذين آمنوه من خوف وأطعموه من جوع.

يا للعار

هل عربٌ أنتم ؟ هل عربٌ أنتم ؟

الموصل عروس عروبتكم

فلماذا أدخلتم كل زناة الأرض إلى حجرتها

وسحبتم كل خناجركم

وتنافختم شرفاً

وصرختم فيها أن تسكت صوناً للعرض

فما أشرفكم ؟

أولاد القحبة .. هل تسكت مغتصبة؟

أولاد القحبة

إن حضيرة خنزيرٍ أطهر من أطهركم

تتحرك دكَّة غسل الموتى

أما أنتم لا تهتز لكم قصبة

(أبكوا الآن كما تبكي النسوان

بلاداً لم تحموها

كالفرسان)[1]

* * *

أقول: على الرغم من أن جحافل الجراد الداعشي قد جردوا الموصل من كل أثرٍ إنسانيٍ وحضاري وثقافي وديني وأخلاقي واستهتروا بالمقدسات وأباحوا الحرمات وباعوا النساء في أسواق النخاسة، على الرغم من كل ذلك فإن فضلهم على موضوعنا كبير ذلك أنهم أثبتوا صدق قول أفراد ندوتنا المذكورة أحمد وعلي وحازم ورمزية علي حنون بعدم وجود نساء مختتنات في الموصل وذلك عندما قرروا ختان أربعة ملايين إمرأة موصلية ختاناً جماعياً حسبما ورد في التقارير التي أذاعتها الجمعيات

---

١) من قصيدة (القدس عروس عروبتكم) لمظفر النواب بتصرف إذ لا فارق فالموصل عروس العراق المغتصبة.

الخاصة بحقوق الإنسان وفي الفضائيات وغيرها كما سنذكر ذلك فيما يلي:

٢- التقارير:

من دبي، الإمارات العربية المتحدة CNN: حذرت الأمم المتحدة الخميس من أن أربعة ملايين إمرأة من العراق يواجهن خطر تشويه أعضائهن التناسلية بعدما أمر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام (داعش) بختان جميع الفتيات والنساء في الموصل.

وقالت (جاكلين باد كوك) منسقة الشؤون الإنسانية للأمم المتحدة في العراق: إن هذا المرسوم لم يسبق له مثيل إذ إن عادة ختان الإناث ليست منتشرة في العراق وأشارت التقارير إلى فتوى أصدرتها ما تسمى بالهيئة الشرعية لتنظيم داعش تحضّ على ختان الإناث بدعوى إنَّ الممارسة هي أحدى السنن النبوية. وأضافت (باد كوك): ما يصل إلى أربع ملايين فتاة وامرأة يمكن أن يتأثرن بهذه الفتوى ليست هذه إرادة الشعب العراقي، ونساء العراق في هذه المناطق المعرضة للخطر التي يسيطر عليها الإرهابيون على ما أوردت الأمم المتحدة بموقعها الالكتروني.

ويشار إلى أن الأمم المتحدة منعت عادة ختان البنات.

ولما كانت داعش قد أصدرت الفتوى أثناء احتلالها للموصل فإن أربعة الملايين امرأة المذكورات في الفتوى كن جميعاً من الموصل بمعنى أن نساء الموصل لم يعرفن الختان إطلاقاً.

وجاء في قناة العربية عنوان:

(داعش يفتي بختان الإناث ومفتيها غير مختون) ٢٠١٤/٧/٢٤.

أقول: إنصافاً للرجل إن هذا تحاملٌ وافتئات عليه. فإنه كما قيل سامرائي مسلم فلا بد أن يكون مختتناً، ثم كيف اكتشفوا إنه غير مختون ؟ هل يريدون بذلك أن يستعيدوا أسطورة الحجر عندما فرَّ بثوب موسى وظل موسى يجري خلفه عارياً وهو يصيح ثوبي حجر ثوبي حجر. فرأى قوم موسى عورته؟

* * *

(الگارديان) تدافع عن أبي بكر البغدادي/ ٢٠١٤/٧/٢٥:

كتب أنس حبيب: نفى تنظيم داعش التقرير الذي نشرته الأمم المتحدة أمس الخميس حول اعتزام داعش إجبار نساء الموصل على التعرض للختان على اختلافهن وفقاً لما نشرته الگارديان البريطانية. وكان موقع الأخبار الكردي قد نشر أيضاً إجبار النساء على التعرض للختان مغيرين النفي الذي نشرته

داعش وأنصارها غير حقيقي ومخالف للحقيقة حتى لا تتعرض الحركة الإسلامية المتطرفة للمزيد من النقد على المستوى المحلي والدولي وقالت داعش بأن الخبر غير حقيقي وليس إلا شائعة تهدف لخلق بروبكنده مضاده للخلافة الحديثة بين العراق وسوريا مؤكدة إن مصدر الإشاعة وثيقة عمرها عام تعرضت للتحريف وكانت قد صدرت في مدينة حلب في سوريا عام ٢٠١٣ مما لا يجعلها سنداً لتقرير الأمم المتحدة.

ويرى تقرير الگارديان إن الخبر يثير الكثير من الشكوك نظراً لعدم انتشار عادة ختان البنات في العراق كما إنها غير متواجدة في الشريعة الإسلامية التي تزعم داعش بتبنيها في إدارتها للمدن التي سيطرت عليها منذ شهر يونيو الماضي بعد ترك الجيش العراقي لمواضعه أمام زحفها شمال العراق.

وقال المتحدث الرسمي السابق للشرطة في مدينة الموصل إنها (تعتبر هدية من أبو بكر البغدادي لأبناء مدينة الموصل).

* * *

أقول تعليقاً على قول مدير شرطة الموصل السابق: إنها نِعْمَ الهدية وليتهيأ العراقيون للمثل القائل: من حلقت لحية جارٍ له فليسكب الماء على لحيته

* * *



ختان البنات في مصر

في سنة ١٩٦٥ انتدبتُ من قبل وزارة التربية العراقية لتدريس اللغة العربية في مدارس دولة الكويت فصدر تعييني في مدرسة القادسية المتوسطة. وكانت مدرسة فخمة ضخمة واسعة تقوم هندسة بنائها على أساس البناء المفتوح وكانت تضم عدة أجنحة ذات ثلاثة طوابق وكان كل طابق مخصصاً لتدريس مادة من المواد وكان طابق اللغة العربية في الدور الثاني من الجناح الأول.

وقد ضمت المدرسة عدداً كبيراً من المدرسين ذوي جنسيات مختلفة من الفلسطينيين والسوريين والسودانيين والمصريين ونحن العراقيين وكان عددنا أربعة وكانت الغالبية من المصريين.

وقد اعتدنا أن نتزاور فيما بيننا خلال الفرص وفي الاجتماعات العامة وكان بارزاً فيما بيننا في مجال النكتة مدرس التربية الرياضية وهو مصري دمث الأخلاق من أهالي الصعيد - أسأل الله أن يذكره بالخير إن كان حياً ويرحمه إن كان ميتاً- .

وقد حدث أن انقطع المدرس المذكور عن الدوام ثلاثة أيام، وعندما داوم ذهبت استفسر منه عن سبب انقطاعه، إذ خشيت أن يكون حصل له أمر سيّء، فأجابني مبتسماً بحياء بالغ: لقد أخذت إجازة لأرتب حفلة ختان بنات أخي الثلاثة. قالها بصوت خفيض وكأن الأمر يدعو إلى الخجل، فصدمت وخجلتُ أنا بدوري فلم أسأله عن كيفية ختانهن وكيفية ترتيب الحفلة، ويبدو أنها اقتصرت على الأقارب حيث العادة المتبعة عندهم في ختان البنات -كما اتَّضح لي بعد ذلك- أن لا يشهّر فيها مثل شهرة الغلام وتبقى منغلقة على الأقارب والشاهد على ذلك هو المرحوم أحمد أمين.

يوضح المؤرخ المصري المعروف أحمد أمين طريقة ختان البنات فيقول:

ويتولى ختان البنات (دايات) يقمن بهذه العملية، وفي هذه الأيام من حياتي أعني في سنة ١٩٥٠ وما بعدها نادى بعض الناس بقصر الختان على الذكور دون الإناث وحجتهم في ذلك

أن ختان البنات قد سبب انتشار عادة تعاطي الحشيش والمنزول والأفيون ونحو ذلك[1]، وذلك بسبب أن البنت إذا اختتنت ثم كبرت فختانها يقلِّل من لذتها الجنسية فيضطر الرجل إلى استعمال المخدرات التي ذكرناها لغيابه عند مضاجعتها فنادوا بعدم ختانها حتى لا يضطر الرجل إلى مثل هذه المخدرات. ولم تلق هذه الدعوة في أول الأمر كثيراً من الاهتمام.

ويصف أحمد أمين ختان الذكور فيقول: يُركب الغلام جواداً أو عربة بعد أن يلبسوه لباساً فخماً، وأمامه الموسيقى أو الطبل والمزمار، وقد يزينون الولد بزيّ الفتاة الصغيرة ويطوفون به في الشوارع القريبة من بيتهم على هذه الحال وتقام مأدبة كبيرة والعادة أن يختن الطفل بعد هذه الحفلة. (٥٩)

أقول: إن تزيين الولد بزي الفتاة الصغيرة هو وسيلة سحرية الغاية منها أخفاء جنس الولد عن الكائنات الشريرة التي تختار

---

١) المنزول: مخدّر من مشتقات الحشيش. قال واحد من متعاطي هذه المخدرات إنه إذا أراد مقابلة الحكام شرب الخمر لأنها تدفع عنه الخوف وإذا أراد الاتصال الجنسي استعمل الحشيش لأنه ألذ (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية / أحمد أمين /١٧٠)

الذكور بخاصة فتصيبهم بالشر فإذا جاءت إلى هذا الصبيّ وقد غيروا زيّه إلى زيّ البنات حسبته بنتاً فتتركه.

وهذه الوسيلة متبعة عندنا في العراق حيث يعمد الناس الذين يخشون على أطفالهم الذكور إصابتهم بالعين الحاسدة إلى إلباسهم ملابس البنات وتحلية مظهرهم بحلي البنات من أقراط وخزامات وقلائد وخلاخل وغير ذلك.

ويقول أحمد أمين: والمصريون يسمون الختان طهارة كأنّ الفتى والفتاة يتطهران بهذا العمل.(٦٠)

إنّ حقيقة الأمر التي أخفاها أو تغاضى عنها المؤرخ المذكور هي أن المصري يتعاطى الحشيش والأفيون لكي يتخدّر ويؤخر حالة الوصول إلى الذروة عند المضاجعة لأن زوجته بعد أن فقدت بالختان بظرها لا يمكنها أن تصل معه إلى الذروة فتبقى مغتلمة بلا شبع حيث البظر هو العضو الذي يوصلها إلى حدّ الإشباع ثم الانطفاء. إنه آلة تنظيمية خلقها الله من أجل العفة وقد فقدته.

ولذلك كثرت الجرائم المخلّة بالشرف، وقد أكدّت دراسة أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية أن ٨٥٪ من المتهمات بجرائم مخلّة بالشرف هنّ ممن سبق أن أجريت عليهن عمليات الختان مما يؤكد عدم وجود علاقة

ما بين الختان والعفة المزعومة التي تنالها المرأة بعد ختانها(٦١).

يقول د. مهدي السماك (وقد ثبت أن عملية الختان وبشتى صوره للفتيات وفي أي بلد كان لا تؤثر في التهتك الجنسي أو تخمّد الجذوة الجنسية فيهن (كتابه/ مذكرات وخواطر طبيب بغدادي/ ٢/ ٢٠١).

وقد قدرت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان عدد الفتيات اللاتي تجرى لهن عمليات ختان يومياً في مصر بحوالي (٣٦٠٠) فتاة. وتقول وزارة الصحة المصرية أن هذه العادة تطبق منذ آلاف السنين في مصر لدى ٩٨٪ من العائلات في الأرياف و (٧٠٠) في المدن. وفي تعليقها على الاستطلاع دعت جريدة الجمهورية المصرية إلى شن حملة توعية واسعة حول مخاطر عملية الختان.(٦٢)

* * *

٣٧

ختان البنات في القارة السوداء

ولقد رأيت من اللازم ـ استكمالاً لمبحث ختان البنات في مصر ـ أن أذكر أن الدكتور (علي إسماعيل عبد الرحمن)[1] ألقى عار ختان البنات فيها على الأحباش ونزّه الفراعنة عن ممارسته وذلك في تقرير مفيد أعدّه بعنوان (ختان الإناث.. الأسباب والمعتقدات) قال فيه:

(أُتّهم الفراعنة ظلماً أنهم أول من قاموا بهذه العادة ولكن من الثابت أن هذا من الأخطاء التاريخية وذلك لأن المصريين اعتادوا تدوين ما كانت عليه حياتهم من عادات وتقاليد وتوثيقها إما كتابة أو نقشاً . . لذا نجد من البرديات والجداريات ما يؤكد ممارستهم تقليد (ختان الذكور) وهو تقليد نقله بنو

---

١) مدرس الطب النفسي والأعصاب في كلية الأزهر.

إسرائيل ومنهم إلى بني يعرب عن المصريين. أما عادة (ختان الإناث) فلا توجد وثيقة تؤكد ممارستها في مصر الفرعونية، ولم يرد ذكر لها عند المؤرخ مانيتون (٢٨٠ ق.م) ولا عند هيرودوت (٤٢٥ ق.م) حينما زار مصر. بل بالعكس كل ما عثر عليه من أدلة يوحي بأن المصريين حَرّموا تلك العادة. وفي المتحف البريطاني توجد بردية لرسالة بالأحرف الديمونيقية أي الشعبية. ترجع للعام ١٢٣ ق.م. مفادها أن شاباً من جنوب مصر طلب استعادة هدية (الخطبة) من فتاة كان مزمعاً أن يتزوجها لمّا اكتشف أنها مختتنة.

كما أن جميع البرديات الطبية التي تعرضّت لكلّ ما يخصّ المرأة من أمراض أو أعراض أو علاجات لم يوجد بها إشارة واحدة إلى ختان الإناث.

ثم يمضي الدكتور بالقول:

ومن المؤكد تاريخياً أن المجتمع قد عرف ختان الإناث قبل اعتناقه المسيحية والإسلام ومن المحتمل أنه دخل مع غزو الأحباش لها في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، فهو عادة أفريقية قديمة بدأت في وسط أفريقيا وليست لها أية علاقة بالأديان (الإسلام – المسيحية) وليست أيضاً فرعونية.

وقد ذكر الدكتور في تقريره أن هناك ثلاثة ملايين فتاة سنوياً في ٢٨ دولة في القارة الأفريقية تخضع لهذه العادة، كما هو الحال بالنسبة إلى آلاف الفتيات في مجتمعات المهاجرين في أوربا وأمريكا الشمالية وأستراليا وعلى مستوى العالم وهناك حوالي ١٥٥ مليون امرأة مختونة و (٧٠٠) امرأة تختن يومياً و ٩٠ امرأة تختن يومياً داخل أوربا حسب إحصائية لليونسكو ٢٠٠٣، ويعتقد أن العدد قد زاد إلى ٤٠٠ امرأة الآن. وفي ضوء معدلات المواليد الراهنة فإن ذلك يعني أن نحو مليوني فتاة يتعرضن للخطر بشكل ما من ختان الإناث كل عام.

وجاءت أعلى نسبة في ختان الإناث وفقاً لإحصائيات اليونيسيف في غينيا فمصر ومالي والسودان ثم اريتريا وأثيوبيا وبوركينافاسو ثم موريتانيا وساحل العاج وكينيا، أما أقل نسبة لختان البنات فجاءت في النيجر.

وجاء في التقرير المذكور هذا الجدول المهم ننقله هنا كما هو:

جدول يبين الدول التي يتم فيها ختان الإناث

بنين	٥٠٪	إزالة البظر والشفرتين
بوركينافاسو	٧٠٪	إزالة البظر والشفرتين
ج. أفريقيا الوسطى	٥٠٪	إزالة البظر والشفرتين
تشاد	٦٠٪	إزالة البظر والشفرتين وتضييق فتحة المهبل
جيبوتي	٩٠-٩٦٪	إزالة البظر والشفرتين وتضييق فتحة المهبل
مصر	٩٤٪	إزالة البظر والشفرتين وتضييق فتحة المهبل
اريتريا	٩٠٪	إزالة البظر والشفرتين وتضييق فتحة المهبل
أثيوبيا	٨٥٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل
جامبيا	٦٠-٩٠٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل

غينيا	٧٠-٩٠٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل
غينيا بيساو	٥٠٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل
كينيا	٤٧٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل
ليبيريا	٥٠-٦٠٪	إزالة البظر والشفرتين
موريتانيا	٩٠-٩٤٪	إزالة البظر والشفرتين وتضييق فتحة المهبل
موريتانيا	٢٥٪	إزالة البظر والشفرتين
نيجيريا	٥٠٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل
سيراليون	٨٠-٩٠٪	إزالة البظر والشفرتين
الصومال	٩٨٪	تضييق فتحة المهبل
السودان	٨٢٪	إزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل

لم يتم أدراج الدول التي تقل فيها نسبة ختان الإناث عن ٢٥ ٪ وهذه الدول هي:

الكاميرون، الكونغو الديمقراطية، غانا، النيجر، السنغال، تنزانيا، توجو، أوغندا.

أما خارج القارة الأفريقية فإن القطع يمارس في عمان واليمن والإمارات وفي بعض الأماكن من ماليزيا واندونيسيا.

* * *

٣٨

شاهد عيان لحفلة ختان طفلة في السودان

يتميز السودان بكونه بلداً تتنوع فيه الديانات وتتنوع فيه الأثنيات واللغات والتقاليد والعادات. وهو بلد الدراويش والطرق الصوفية العديدة التي يتوزع عليها السكان المسلمون ويتعصبون لها وطالما حدثت بينهم النزاعات التي أدت إلى معارك ضارية راح ضحيتها الآلاف كما حدث في ثورة الدراويش بقيادة المهدي السوداني محمد أحمد سنة ١٨٨١م.

وقد طمعت بخيراته الدول الأجنبية فغزته جيوشها كالمصريين والانكليز والفرنسيين واصطادت حيواناته وسكانه لبيعهم في أسواق النخاسة فبني اقتصاد تلك الدول على سواعد العبيد السود فهو بلد السود ولذلك سمي السودان وأطلق على القارة الأفريقية أسم (القارة السوداء). فإذا قلنا (السودان) عنينا

بهذا اللفظ كل ذلك.. عنينا الديانات المتضاربة والتقاليد المتناقضة عنينا عبادة الأوثان وعبادة الأسلاف وعبادة الطواطم وعبادة الله، وكل ما يخطر على البال حتى الخنافس السوداء (الجعلان) قدِّست ثم دفنت في المقابر بإجلال عظيم.

وعلى هذا فإننا إذا قلنا أن الختان موجود في السودان فهو موجود فعلاً. وإذا قلنا أن الختان غير موجود في السودان فهو غير موجود فعلاً فكلا القولين صحيحان.

* * *

يذكر المؤرخ المصري المرحوم أحمد أمين أن قبيلة سودانية أرادت الدخول في الإسلام. فكتب رئيسها إلى بعض علماء الأزهر يستوضحه الإسلام وما يفعله أفراد قبيلته لدخولهم في الإسلام فكتب إليهم العالم الأزهري قائمة بما يجب أن يعملوه فكان أولها الختان فرفضت القبيلة أن تسلم. (كتابه/ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/١٨٧).

نقول تعليقاً على هذا الخبر أن الشيخ بقلة ذوقه قد خَسَّر الإسلام قوة بشرية قد تكون نافعة لنشر الإسلام في تلك الربوع ولكنه لم يحسن التصرف فبدأ أول ما بدأ بهذه الشعيرة الدموية

التي أفزعت زعيم القبيلة وجعلته يخشى على نفسه وعشيرته من هذا الأجراء وكان الأولى بهذا الشيخ أن يؤجلها ويبدأ بالتعاليم الإنسانية النبيلة التي جاء بها نبيّ الإسلام عليه الصلاة والسلام.

* * *

هذا ما يخص ختان الذكور أما ما يخص ختان البنات فلا شك أن هناك من القبائل من لا تمارسها ولكنها قليلة النسبة حيث الغالبية البالغة ٨٢٪ تمارسها وتتمثّل بإزالة البظر والشفرتين وأحياناً تضييق فتحة المهبل بخياطته وهذا أبشع أنواع الختان.

ولديَّ شاهد على ذلك هو الصديق (فالح محمود) سائق شاحنة كربلائي. اضطرته الحالة المعاشية العسرة خلال الحصار الاقتصادي على العراق في تسعينيات القرن الماضي، اضطرته إلى الهجرة إلى السودان طلباً للرزق اعتماداً على المهنة التي يتقنها: سياقة الشاحنات. وقد جذبه إلى السودان زميل له هاجر قبله ووظف في أحدى شركات النقل. فطار إلى هناك واشتغل بهذه المهنة مدة عشر سنوات فصادق العديد من السودانيين وكان منهم أحد الزعماء. فدعاه هذا الزعيم ذات يوم إلى حفلة غداء بمناسبة ختان.

قال صاحبي السائق: فقبلت الدعوة وباركت للرجل حسب العادة بعبارات المجاملة والدعاء للصبي المختون وقلت كم عمر المحروس حفظه الله؟ فأجاب: إنه ليس ولداً، إنه بنت أخي. فاستغربت لأنني لم أسمع في حياتي بختان البنات. ولما شاهد استغرابي قال: نحن هنا في السودان نختن البنات الصغيرات بعمر بين ٦-٧ سنوات ونقيم الأفراح والولائم لهذه المناسبة.

فما كان مني إلا أن أُلبي الدعوة لأشاهد ما لم أره في حياتي فذهبت إلى بيته وكان غاصّاً بالمهنئين من مختلف المراتب وكانت فرق الغناء الشعبية تصدح بالأغاني السودانية الجميلة والبخور الطيّب يتصاعد إلى السماء وتصفيق الرجال والنساء على أنغام الغناء يعلو في الفضاء فدخلت وشاهدت الطفلة وكانت بعمر السادسة جالسة على منصة فاتحة ما بين فخذيها المغطيين بملاءة بيضاء كما نفعل نحن بالأولاد عندما نختنهم. وقد بدا عليها الإنهاك والتعب وأثر البكاء على وجهها وكانت تتطلع إلى هذا الحشد من الناس يصفق ويزغرد ابتهاجاً بآلامها. لقد كان منظراً محزناً للغاية . . تقدمت منها وباركت لها ووضعت بقربها مبلغاً من المال ثم تناولت الغداء وخرجت.

* * *

٣٩

ختان البنات في ليبيا وختان حارسات القذافي

إن الحالة حول ختان البنات في ليبيا لا تختلف عن حال بقية بلدان شمال أفريقية حيث تسيطر الأحاديث التي يرويها فقهاء السلفية عن هذا الموضوع على عقول الناس هناك، وغالبيتهم تتغلب عليهم نزعة البداوة التي تتميز بالتعصب للسنة النبوية دون تفحص ونقد عقلاني.

وقد تهيّأ لي الحصول على تقرير بهذا الشأن كتبته مدرسة عراقية عملت هناك مدة سنتين تدرّس اللغة الانكليزية[1] وأنا

---

١) هي بشرى عبد المهدي محسن جاسم. مواليد ١٩٥٣. كربلاء. باب بغداد. أكملت دراستها في إعدادية غزّة للبنات. دخلت جامعة بغداد، كلية الآداب قسم اللغة الفارسية (١٩٧٨ - ١٩٨٢). عملت مسؤولة المخطوطات الشرقية في دائرة الآثار والتراث. وعملت مسؤولة قسم الوثائق في المركز الوطني للوثائق عام (٢٠٠٠). وعملت سكرتيرة تحرير جريدة (عراق اليوم) وتعمل الآن في المركز الثقافي للطفل ⇐

أنقله هنا بأسلوبها لكي يطّلع عليه القارئ إذ يجد فيه مقداراً كبيراً من الضوء سلطته الكاتبة على نساء منطقة بنغازي بالذات قالت:

(عندما كنتُ في ليبيا عام ١٩٩٩ وأقمت هناك لمدة سنتين، كان من الطبيعي أن ألتقي بالعوائل الليبية وخصوصاً في مدينة بنغازي. وبسبب كوني هناك تحدثت مع الليبيات عن العادات والتقاليد الموجودة هناك. أخبرتني السيدة (تفاحة الغرياني) وهي مدرسة متقاعدة بأن هناك عادة شائعة عندهم وهي (ختن البنات).

أنا في الحقيقة أول مرة أسمع بأن البنات تختتن لأن الشائع عندنا هو ختان الذكور. أجابتني: نعم الذكور سنة شرعية أما البنات فلكون المجتمع قبائلي بدوي وخوفاً من انحراف البنات وممارسة الجنس قبل موعد الزواج تختتن الفتاة كي تفقد الشهوة الجنسية.

ثم سألتها عمن يقوم بعمل الختن امرأة أم رجل؟ أجابت: امرأة ويكون ذلك منذ الولادة أي بعد مرور أربعين يوما على

⇒

في كربلاء. أتقنت اللغة الانكليزية وتأهلت لتدريسها وذهبت إلى ليبيا لتدريسها وبقيت هناك لمدة سنتين.

ولادة المولودة. وتعمل لها حفلة ختان في البيت بحضور قابلة أو ممرضة تقوم بختن بظرها وربطه بخيط لحين موعد الزواج.

في الحقيقة أدهشتني هذه الحالة. وعندما تركت بنغازي وذهبت إلى طرابلس عاودت الحديث عن هذه الظاهرة مع سيدة كنت أقيم عندها حيث استأجرتُ غرفة من بيتها اسمها (أم حسين) فاطمة، ليس لها زوج ولها أبنان الأول (حسين) والثاني (حسن) وهي من مقاطعة (الخمس) إحدى المدن الليبية. أخبرتني بأنها لم تكن مختونة وارتكبت الزنى مع شخص مصري مما تسبّب بجلدها هي والحكم على الشخص بالسجن وقد تم تزويجهما وابنها البكر (حسين) ولد في السجن أما الثاني فمن زوج آخر بنفس الطريقة. وقالت: (ختان الفتاة الليبية ضروري لأن تكوينها الخلقي يجعلها شديدة الشهوة مما يجعلها ترتكب أخطاء)أ.هـ

أقول: ويبدو لي وللقارئ الكريم أيضاً أن قول فاطمة (أم الحسن والحسين ؟؟) كانت تريد أن تُبرّر زناها مع الرجلين بكونها لم تختتن، ولو كانت اختتنت في طفولتها لما زنت وهذا تبرير سخيف حيث أكدت التقارير ـ كما قدمنا ـ أن ختان البنات لا يمنعهن من ممارسة الجنس المحرم قبل الزواج. وقد

أكدت ذلك السيدة صاحبة التقرير وقالت بانتشار الزنى في ليبيا رغم كون الليبيات مختتنات.

وقالت أيضاً أن الرئيس (السيد معمر القذافي) (المرحوم الآن) عندما كان يختار حرسه الخاص من النساء الأفريقيات وغالبيتهن لم يجرِ عليهن الختان كان يأمر بختانهن وخياطة الموضع لقتل شهوتهن إلى الرجال. وذكرت الكاتبة أنهم يقطعون كامل البظر والشفرتين ويخيطون الموضع. ويسمون هذا النوع من الختان بـ(الختان الفرعوني).

لقد كان السيد القذافي حذراً جداً من الاغتيال. فكان يحمي نفسه بوسائل عديدة منها الاعتماد على النساء لحمايته دون الرجال. وقد وجد أن نساء القبائل الأفريقية يمتلكن ولاءً فطرياً لشيخ القبيلة، فوظّف هذا الولاء نحو نفسه باعتباره شيخ مشايخ أفريقية ففضلهن على بقية النساء وجعلهن حارسات له. ولم يكتف بذلك فتصور أن أحدى حرسيّاته قد تعشق شخصاً ما فيوظفها هذا الشخص لاغتياله ولقطع هذا الهاجس أمر بقطع بظورهن جميعاً وخياطة المكان ليمنعهن من الشهوة نحو الرجال. ومع ذلك فقد جاءه الأمر من حيث لا يحتسب.

* * *

٤٠

كلمة الختام

أقول: أنا لا ألوم شعوبنا المسلمة على تمسكها بمخلفات الأسلاف البالية من ممارسات ومعتقدات ثبت ضررها وبطلانها، ولكنني أوقع اللوم على القادة الروحيين لتلك الشعوب الذين يضعون عمامة الشرعية على تلك الممارسات عن طريق ربطها بالعلم الحديث والإيحاء إلى تابعيهم بأنها تتفق مع آخر الاكتشافات العلمية وهم في الواقع بعيدون عن العلم واكتشافاته والشعب جاهل أغلبه فيصدق دون وعي بما يقوله أولئك القادة الروحيون. خاصة إذا ربطوها بالأحاديث النبوية قائلين أن ما جاء في هذه الأحاديث لا يناقض العلم. وقد حدث هذا في مسالة ختان البنات كما رأينا.

ويأتي دور القادة السياسيين وأغلبهم جاء إلى السلطة بالوسائل الدكتاتورية. فلكي يثبت الدكتاتور شرعية حكمه يماشي أولئك القادة الروحيين في فتاواهم تقرّباً إلى الشعب فتترسخ المسألة أكثر في العقول.

ويأتي دور القنوات المرئية وكلها مُسيّسة موجهة من قبل سلطة خفيّة تدير العالم وتحاول السيطرة عليه فتحبّذ لمشاهديها هذا الأمر وتكرّه في عيونهم ذلك الأمر والناس في هذا العصر غالبيتهم عبيد القنوات المرئية فتروج عند ذلك بضاعة وتبور أخرى. فإذا قالت الفضائية مثلاً: أن ختان البنات يصون شرف العوائل، سارعت العوائل إلى بتر أعضاء بناتها.

وعلى الرغم أن هذا لم يحدث في القنوات المرئية فإننا لن ننسى قبل بضع سنوات حملات الإبادة التي شُنَّت على الحيوانات الداجنة بحجة إصابتها بأمراض موهومة مفبركة منها جنون البقر وأنفلونزا الدجاج وأنفلونزا الخنازير وأنفلونزا الطيور وغيرها فصدرت الأوامر العليا إلى مربي تلك الحيوانات بإبادتها فأبيدت ملايين القطعان منها فانهار اقتصاد كثير من الدول وأولهم بريطانيا التي قضي على العجول فيها ومنع استيراد اللحوم منها. وكذلك في مصر وتركيا والصين أبيدت قطعان الخنازير والدجاج والبط فتضرر اقتصاد الدول المذكورة وغلت أسعار اللحوم وتأثرت الحالة الصحيّة للناس.

وأذكر في خضم تلك المذابح التترية المسعورة أن طيّورياً مسكيناً في مدينة ميسان (العمارة) جنوب العراق كانت لديه مجموعة من الحمائم النادرة. وكان يحبها أكثر من روحه وحتى

من أولاده. فداهمته الشرطة وقتلت جميع طيوره فراح يبكي بحرقه ويرثيها بالشعر ثم أخذها ودفنها بين قبور الناس في مقبرة المدينة وبقي ينوح عليها أياماً حتى وجدوه ميتاً فدفنوه بجنب طيوره. وقد نشرت الصحف خبره في ذلك الحين.

والآن أين تلك الأمراض؟ لقد كانت أمراضاً سياسية الغاية منها تخريب اقتصاد دول العالم ليرتقي اقتصاد الدولة الكبرى التي تدير العالم.

لقد شطح بي القلم وكانت غايتي أن أختم الموضوع بكلمة .. ولكنني سأجعل هذه الكلمة هي مسك الختام قاصداً أن القضاء على طقوسية ختان البنات الشريرة منوط بتوجيهات الرجال الروحانيين المتفتحين والسياسيين الوطنيين والفضائيات المرئية الشريفة.

حسين علي الجبوري

كربلاء المقدسة ٢٠١٤/٩/١

JUBURY35@yahoo.com

Mob. 07804040880

٤١

كلمة شكر

أوجه شكري الجزيل إلى السادة الذين أعانوني في تأليفي هذا الكتاب وتزويدي بالمعلومات المهمة وهم كل من:

١- الأستاذ الباحث حسن عبيد عيسى

٢- الأستاذ المهندس والباحث عبد الإله سامي

٣- الباحث رفعت المنوفي المصري

٤- الدكتور حازم عبودي السعيدي الأستاذ في الكلية التربوية المفتوحة.

٥- الدكتور علي رحيم الحلو. خبير في إدارة التربية.

٦- الباحثة بشرى عبد المهدي محسن

٧- الراوي الميداني عبد الحسن هليل الشفائي

٨- الراوي الميداني أبو عماد البصري

٩- تلميذنا وصديقنا السيد أسامة السيد جعفر الذي نضّد هذا الكتاب وأخرجه.

حسين علي الجبوري



الإحالات

١	طبقات المحدّثين بأصبهان والواردين عليها / ابن حيان المعروف بأبي الشيخ الأنصاري/ ٣٤٧/٣ ط. الأولى ١٤١٢هـ/ نشر مؤسسة الرسالة/ بيروت. لبنان
٢	الكافي / الشيخ الكليني/ ٣٧/٦ تحقيق علي أكبر غفاري/ مطبعة حيدري / نشر دار الكتب الإسلامية/ ط. الثانية
٣	م.ن.
٤	كتابه/ فقه السنّة/ ٣٧/١ نشر دار الكتاب العربي/ بيروت. لبنان
٥	ملف الهَبَل العربي/ حسين علي لوباني الداموني/ ١٧١ طبعة دار الانتشار العربي/ بدون تاريخ
٦	مسائل ابن تيمية/ فقه الطهارة/ ص ٦٨-٦٩
٧	دائرة المعارف الإسلامية المترجمة/ مادة: ابن تيمية
٨	ملف الهبل العربي / المصدر السابق
٩	م.ن. ص ١٧١

١٠	سفر التكوين /٩/١٧ وما بعدها
١١	م.ن. /٣/١٢
١٢	المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم/ الخوري بولس الفغالي/ ص٤٩٤/ ط. الأولى ٢٠٠٣/ المكتبة البولسية، ص.ب ١٢٥ جوينة. لبنان
١٣	لإصحاح/ ٥/آية٢ وما بعدها.
١٤	المصدر السابق
١٥	البخاري/ كتاب الأنبياء باب ٨، مسلم كتاب الفضائل/ الحديث ١٥١
١٦	طبقات ابن سعد ج١ القسم الأول ص٢٤
١٧	دائرة المعارف الإسلامية المترجمة/ المصدر السابق/ مادة: ختان
١٨	كتابه/ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦٣٧/٤/ ط. الأولى/ ١٩٦٨/ نشر دار العلم للملايين/ بيروت. لبنان
١٩	منتهى المطلب/ العلامة الحلّي/ ١٠٢/٢/ مقابلة: حسن بيشنماز/ الناشر: حاج أحمد تبريزي/ ١٣٣٣هـ والحديث مروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) وهو مناقض لما روي عنه من الأحاديث السابقة التي ذكرناها.
٢٠	أنظر/ تهذيب الأحكام/ الشيخ الطوسي/ ٣٦٠/٦/ تحقيق السيد حسن الخرسان/ مطبعة خورشيد/ نشر دار الكتب الإسلامية/ ط. الرابعة ١٣٦٥ش/ وانظر/ الكافي/ المصدر السابق/١١٩/٥
٢١	سنن ابن ماجة/ ١٩٩/١ /٦٠٨ و٦١١، سنن البيهقي /١/١٦٣ والحديث مروي عن عائشة (رض) في مسند أحمد/ ٢٣٩/٦. ومروي كذلك في مصادر الشيعة/ أنظر مثلاً: منتهى المطلب/ العلامة الحلي /١٨١/٢ وفي صحيح زرارة عن الباقر(ع) أن علياً

	قال: إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل.
٢٢	شرح الأخبار/ القاضي النعماني المغربي/١ /٢٦٩/ نشر مؤسسة النشر الإسلامية/ قم المقدسة
٢٣	فتح الباري في شرح صحيح البخاري/ ابن حجر العسقلاني/ ٨٣/٧/ ط. الثانية/ الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر/ بيروت. لبنان
٢٤	م.ن.
٢٥	السيرة النبوية/ ابن كثير/٣٤/٣
٢٦	المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ المصدر السابق/٦٣٧/٢
٢٧	صحيح البخاري/ محمد إسماعيل البخاري/ ٢١٥/٥/ نشر دار الفكر/ بيروت. لبنان
٢٨	الفائق في غريب الحديث/ جار الله الزمخشري/ ٣٩٠/٢/ ط. الأولى ١٤١٠هـ/ طبع ونشر دار الكتب العلمية
٢٩	لسان العرب/ ابن منظور/ مادة: متك
٣٠	الغدير/ الشيخ عبد الحسين الأميني/ ١٥/٩ ط. الرابعة/ ١٣٩٧هـ/ نشر دار الكتاب العربي/ بيروت. لبنان
٣١	الدر المنثور في طبقات ربات الخدور/ زينب بنت فواز العاملية/ ص ٢٣٥/ طبعة بالأوفست عن الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٢هـ
٣٢	الأغاني/ أبو الفرج الأصبهاني/ ١٤/٢٢ طبعة بالأوفست عن طبعة دار الكتب المصرية/ تحقيق بإشراف محمد أبي الفضل إبراهيم.
٣٣	أساس البلاغة/ الزمخشري/ تحقيق عبد الرحيم محمود/ مادة: بظر
٣٤	مسند أحمد/ أحمد بن حنبل/ ٤ /٣٢٤/ ط. ونشر دار صادر.

	بيروت
٣٥	فتح الباري/ المصدر السابق/ ٤٨/٥
٣٦	المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ المصدر السابق/ ٢٣٥/٦
٣٧	أنظر / (كتابه معجم البلدان/١/ ١٤٠)
٣٨	كتابه تكملة المعاجم العربية
٣٩	م.ن.
٤٠	أنظر / الديارات لأبي الحسن بن محمد المعروف بالشابشتي/ تحقيق: كوركيس عواد/ ١٥٠ نشر دار المرشد. وأنظر كذلك/ العجائب والطرف والهدايا والتحف للقاضي الرشيد ابن الزبير تحقيق محمد حمد الله/ الكويت ١٩٥٩ ص ١١٣- ١١٩ وثمار القلوب للثعالبي/ ص ١٣١ بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
٤١	ملف الهَبَل العربي/ المصدر السابق/ ١٧٢ عن مذكرات الأميرة جويدار ص ٨٣
٤٢	بغداد كما عرفتها/ أمين المميز/ ١٣٦ — ١٣٨
٤٣	كتابه/ موسوعة الكنايات البغدادية/ ٣١٣/٢/ ط. الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م/ مطبعة دار الكتب. بيروت. لبنان
٤٤	عن/ تقرير منشور في أنباء موسكو باسم أحمد محمد عن ختان الإناث في العراق htt/anbamoscow.com
٤٥	العودة إلى الأهوار/ كافن يونغ/ ترجمة: د. حسن الجنابي/ص ٥٢ / منشورات دار المدى
٤٦	م.ن. /٥٩
٤٧	م.ن. /٦٣
٤٨	م.ن. /٩٥ وما بعدها
٤٩	عرب الهور/ ولفريد ثيسيغر/ ص٤٩/ ترجمة: د. سلمان عبد

	الواحد كيوش
٥٠	النفي والتغريب في مصادر التشريع الإسلامي/ ٣٠٦/ نجم الدين الطبسي
٥١	كتابه/ العودة إلى الأهوار/ المصدر السابق
٥٢	عرب الهور/ المصدر السابق/ مقدمة الكتاب بقلم المترجم
٥٣	م.ن. /١٤٣/ وما بعدها
٥٤	علم الفولكلور/ الكسندر كراب/ ٢٣٥ / ترجمة رشدي صالح/ وزارة الثقافة/ مؤسسة التأليف والنشر/ دار الكتاب العربي / القاهرة ١٩٦٧
٥٥	تقرير من موقع كتابات (الختان يحوّل نساء كردستان إلى كتل من الثلج/ ٦ حزيران ٢٠١٣
٥٦	م.ن.
٥٧	عن/ أنباء موسكو/ موقع شبكي. أحمد محمد. إقليم كوردستان (ختان الإناث شمال العراق عادة تمارس في الخفاء تدفع المرأة ثمنها)
٥٨	م.ن.
٥٩	كتابه/ قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية/ ١٨٨
٦٠	م.ن. /١٨٨
٦١	ملف الهبل العربي/ المصدر السابق/ ١٧٢
٦٢	المصدر السابق/ نفس الصفحة عن جريدة الجمهورية والمنار عام ١٩٩٧

هذا وهناك إحالات أدرجناها بعد ذكر النص لا موجب لإيرادها هنا.

هوية المؤلف

* الاسم الكامل: حسين علي حسون جار الله الجبوري.
* ولد في سوق الشيوخ من أعمال مدينة الناصرية.
* بدأ تعليمه الأول في مدرسة الدغارة الابتدائية سنة ١٩٤٢ ثم كربلاء في مدارسها الابتدائية فالمتوسطة فالثانوية.
* نال شهادة البكالوريوس في اللغة العربية من دار المعلمين العالية سابقاً و(كلية التربية) لاحقاً (جامعة بغداد) وتخرج منها مدرساً ١٩٥٩/٩/١٤
* مارس التدريس في مدارس العراق ثم منتدباً للتدريس في مدارس الكويت المتوسطة ١٩٦٥-١٩٧٠
* أحال نفسه للتقاعد ١٩٨٤
* عضو اتحاد الأدباء العراقيين

*** له من المؤلفات المطبوعة:**

١- الخناقون ورسيس القتل الطقسي

٢- البكاء على تموز عند ضريح الولي أبي حصيرة

٣- في أحزان قبائل الوحش على مصرع الحسين

٤- أصوات التفجع والتوجع في كبرى المناحات

٥- القُبلة وتقاليد التقبيل في شرائع الحب والدين والسياسة

٦- طب الأقدمين في علاج الأمراض بعامة والعشق بخاصة

*** مؤلفات قيد الطبع:**

٧- موسوعة الأطعمة والأشربة الكربلائية الأصل والتاريخ

٨- قاموس المعتقدات والتقاليد والتعابير العراقية

الفهرس